-9-

العائلة

بحلول بداية عامي الثاني في مجلس الشيوخ، استقرت حياتي على إيقاع قابل للتدبير. كنت أغادر شيكاغو ليل الاثنين أو صباح الثلاثاء، اعتمادا على مواعيد جلسات التصويت في المجلس. وباستثناء ذهابي يوميا إلى نادي اللياقة البدنية في المجلس والغداء أو العشاء مع صديق (وهذا أمر نادر)، كانت تشغلني في الأيام الثلاثة التالية سلسلة متوقعة ومعروفة من المهمات ـ مراجعة التعديلات على القوانين التي تطرحها اللجان، والتصويت، والغداء مع الأعضاء الديمقراطيين، والبيانات في قاعة المجلس، والخطب، والصور مع الأعضاء، وجمع التبرعات في الأمسيات، والرد على المكالمات الهاتفية، وكتابة المراسلات، ومراجعة التشريعات، وكتابة مسودات المقالات، وتسجيل الملفات الرقمية من الإنترنت، وتلقي الإيجازات السياسية، واستضافة الناخبين، وحضور سلسلة لا نهاية لها من الاجتماعات واللقاءات. وفي أصيل أيام الثلاثاء، نعرف، حين نكون في غرفة الاستراحة الملحقة بالمجلس، موعد التصويت، وفي الوقت المحدد أقف في الطابور مع الزملاء لأدلي بصوتي، قبل أن أنزل درجات مبنى الكابيتول مسرعا لألحق بالطائرة التي تقلني إلى شيكاغو وأصل إلى المنزل قبل أن تخلد البنتين إلى النوم.

على الرغم من برنامج المواعيد المتخم، وجدت العمل مثيرا وساحرا، وإن يكن محبطا بين الحين والآخر. فخلافا للمدركات الشعبية السائدة، لا يعرض على التصويت في قاعة المجلس سوى قرابة عشرين مشروع قانون يحظى بالأهمية كل سنة، ومن النادر أن يقدم أحدها عضو من حزب الأقلية. ونتيجة لذلك، انحصرت في إطار اللجان معظم المبادرات الرئيسة التي قمت بها – تشكيل مناطق مبتكرة للمدارس العامة، وخطة لمساعدة مصنعي السيارات الأمريكيين على دفع تكاليف الرعاية الصحية للعمال المتقاعدين مقابل رفع معايير الاقتصاد في استهلاك الوقود، وتوسيع

برنامج بيل غرانت لمساعدة الطلاب من ذوي الدخل المحدود على تلبية نفقات التعليم الجامعي المرتفعة.

من ناحية أخرى، استطعت بفضل العمل الدؤوب للموظفين المساعدين أن أدخل تعديلات على عدد كبير من القوانين: ساعدنا على توفير التمويلات الضرورية للمحاربين القدماء الذين لا يملكون بيوتا. وفرنا ائتمانات ضريبية لمحطات الوقود التي تنصب مضخات وقود (E85). حصلنا على تمويل لمساعدة منظمة الصحة العالمية على الرصد والاستجابة لجائحة أنفلونزا الطيور المحتملة. أجزنا في المجلس تعديلا يلغي العقود التي لا تعتمد على مناقصات فيما يتعلق بإعادة إعمار المناطق المنكوبة التي اجتاحها إعصار كاترينا، وبذلك عاد مزيد من المال إلى أيدي ضحايا المأساة. صحيح أن هذه التعديلات لن تغير البلد، لكنني شعرت بالرضى لأن كلا منها قدم لبعض الناس مساعدة متواضعة أو دفع القانون قليلا في اتجاه قد يثبت أنه أكثر اقتصادا أو أكثر استجابة أو أكثر عدالة.

في أحد أيام شهر شباط/ فبراير، وجدت نفسي في حالة مزاجية ومعنوية جيدة، بعد أن استكملت جلسة استماع حول تشريع قدمته أنا وديك لوغار استهدف تقييد انتشار الأسلحة وتجارتها في السوق السوداء. ولأن ديك أحد أبرز الخبراء في المجلس فيما يتعلق بقضايا انتشار الأسلحة، إضافة إلى ترؤسه على لجنة شؤون العلاقات الخارجية، فقد كانت احتمالات إجازة مشروع القانون واعدة. أردت أن أتقاسم مع ميشيل الأخبار السارة، فاتصلت بها من مكتبي في واشنطن وشرحت لها أهمية القانون ــ كيف يمكن للصواريخ المضادة للطائرات المحمولة على الكتف أن تهدد الرحلات الجوية التجارية إذا وقعت في أيدي الأعداء، وكيف استمرت مخزونات الأسلحة الخفيفة من حقبة الحرب الباردة تغذي الصراعات في مختلف أرجاء العالم. قاطعتني ميشيل قائلة:

«في بيتنا نمل!»

«ماذا؟»

«وجدت النمل في المطبخ. وفي الحمام»

«حسنا..»

«أريدك أن تشتري مصائد للنمل قبل أن تأتي إلى البيت غدا. أستطيع شراءها بنفسي لكن علي أخذ البنتين إلى موعد الطبيب غدا بعد المدرسة. هل تقدر؟»

«أجل. مصائد للنمل»

«مصائد للنمل. لا تنس يا عزيزي. علي الآن الذهاب لحضور اجتماع. إلى اللقاء»

أغلقت الخط، وتساءلت هل يبتاع تيد كنيدي أو جون مكين مصائد للنمل في طريقهما إلى المنزل من العمل.

معظم الذين يقابلون زوجتي يستنتجون بسرعة أنها تتمتع بشخصية لافتة. وهم على حق ـ فهي ذكية، وساخرة، وساحرة. وهي أيضا جميلة، لكن جمالها ليس من النوع الذي يجده الرجال مهددا أو تجده النساء مزعجا أو منفرا؛ إنه جمال الأم والموظفة المهنية المشغولة بعملها، الذي يختلف عن صور فتيات الغلاف في المجلات الشهيرة. في كثير من الحالات، يأتي أحدهم إلي بعد سماعها تتحدث في اجتماع أو العمل معها في مشروع ويقول شيئا مثل: «باراك، أنا معجب بك، لكن زوجتك.. رائعة!» في العادة، أومئ برأسي، فأنا أعرف جيدا أنها لو نافستني على أي منصب عام لما وجدت صعوبة تذكر في الفوز علي.

من حسن حظي أن ميشيل لن تدخل معترك السياسة أبدا. وهي تقول لمن يسألها: «ليس لدي الصبر» ومثلما هي عادتها، فهي تقول الصدق.

التقيت ميشيل في صيف عام 1988، حين كنا نعمل معا في مؤسسة قانونية كبيرة (سيدلي و اوستن) يقع مقرها في شيكاغو. ومع أنها تصغرني بثلاث سنين، إلا أنها كانت محامية ممارسة، بعد أن انتسبت إلى كلية الحقوق في هارفارد حالما تخرجت في الجامعة. كنت قد أنهيت لتوي السنة الأولى في كلية الحقوق وبدأت العمل مساعدا مؤقتا في الصيف.

كانـت مرحلة صعبة وانتقالية في حياتـي. فقد انتسبت إلى كلية الحقوق بعد ثلاث سنـوات من العمل في مجال التنظيم الاجتماعي. ومع أنني استمتعت بدراستي، إلا أن الشـك ظـل يراودني فيما يتعلق بقـراري. كنت قلقا في سري مـن أن يمثل ذلك تخليا عن المثل العليا التي تبنيتها في سنوات الشباب، تنازلا للوقائع الصارخة التي يفرضها المال والسلطة ـ العالم كما هو لا كما يجب أن يكون.

فكـرة العمل في مؤسسة قانونيـة، قريبة بهذا القدر ومع ذلك نائية إلى هذا الحد عن الأحياء الفقيرة التي ما زال أصدقائي يكدحون فيها، فاقمت تلك المخاوف. لكن مـع ارتفاع أقسـاط قروض الطلاب بسرعة، لم يكن وضعـي يسمح لي برفض مرتب الشهـور الثلاثة الذي عرضته علـي المؤسسة. وهكذا، بعد أن استأجرت أرخص شقة وجدتهـا، وابتعت أول ثلاث بذات وحذاء جديدا (تبين أنه صغير المقاس وسوف يشل حركتـي طوال الأسابيع التسعـة التالية)، دخلت المؤسسـة في صبيحة يوم ماطر من أيـام شهر حزيـران/ يونيو، وتوجهت إلى مكتب المحاميـة الشابة التي عينت مشرفة على عملي.

لا أتذكـر تفاصيـل أول حديث لي مـع ميشيل. أتذكر فقط أنهـا فتاة طويلة القامة (تماثلنـي في الطـول حـين تلبس حـذاء عـالي الكعـب) ومحببـة وودودة ومحترفة، ومظهرها يدل على شخصيتها. شرحت لي كيف تعين المهمات في المؤسسة، وطبيعتها، وكيف نسجل ساعـات العمل على القضايا. وبعد أن قادتني إلى مكتبي، وزرنا المكتبة، عرفتني بأحد الشركاء وقالت: إنها ستقابلني على الغداء.

أخبرتني ميشيل فيما بعد أنها فوجئت (مفاجأة سارة) حين دخلت مكتبها؛ فالصور الشخصيـة التي أرسلتهـا بدا فيها أنفي أكـبر حجما، وشككـت في رأي السكرتيرات اللاتـي شاهدنني خلال المقابلة وقلـن إنني جذاب: «اعتقدت أنهـن تأثرن، كعهدهن دومـا، برجل أسـود يلبس بزة ويحصل على عمـل» لكن إذا كانت ميشيـل قد تأثرت، فإنهـا لم تظهـر تأثرها خلال الغـداء. عرفت أنها نشأت في منطقـة ساوث ساید، في بيـت صغير إلى الشمال من الحي الذي كنت أمارس فيه عملي التنظيمي. كان والدها مشغل مضخة المدينة؛ وظلت والدتها ربة بيت إلى أن كبر الأولاد، فعملت سكرتيرة في

أحـد المصارف. تخرجت في مدارس شيكاغو الثانوية ثم لحقت بأخيها في برينستون، حيث تألق في فريق كرة القدم. في المؤسسة القانونية كانت عضوا في مجموعة الحقوق الفكريـة وتخصصت في مجال الترفيه؛ في إحـدى المراحل، فكرت بالانتقال إلى لوس أنجلوس أو نيويورك للعمل هناك.

تحدثت ميشيل عن الكثير من الخطط ذلك اليوم، ولم يكن لديها وقت لتنشغل عن خططهـا، كما قالت ـ خصوصا مع الرجـال. وكانت ضحكتها مشرقة. لكنني لاحظت أنهـا ليست في عجلـة من أمرها لتعود إلى المكتب. هنالك أمر آخر، ثمة التماعة تتألق في عينيهـا السوداوين كلما نظرت إليها، تلمح إلى شيء من عدم اليقين، كأنما تعرف في أعمـاق أعماقها مدى هشاشة الأشياء، فإذا فقـدت السيطرة، ولو للحظة واحدة، فسـوف تتفكك الخطط وتتهاوى بسرعـة. تأثرت نوعا ما بتلـك اللمحة من الضعف. وأردت أن أعرف ذلك الجزء منها.

كنـا نلتقي طوال الأسابيع التالية يوميا، في المكتبـة أو الكافتريا أو خلال النزهات العديدة التي تنظمها المؤسسة للموظفين والمساعدين القانونيين المؤقتين لإقناعهم بأن الحياة في مهنة المحاماة ليست مجرد ساعات طويلة من البحث في الوثائق ودراستها. دعتنـي إلى حفلة أو اثنتين، متغاضية بلباقة عما في خزانتي من ثياب قليلة، وعرفتني ببعض أصدقائها. ومع ذلك رفضت الخروج في موعد (غرامي) معا. فذلك ليس لائقا كما قالت لأنها المشرفة علي والناصحة لي.

قلـت لها: «هـذا عذر واه. أي نصيحة قدمتها لي؟ نصائحك لا تتعدى تدريبي على استخدام آلة نسخ الصور، وأفضل المطاعم. ولا أظن أن الشركاء سيعدون الموعد بيننا خرقا خطيرا لسياسة المؤسسة»

هزت رأسها وقالت: «أعتذر»

«حسنـا، أنا مستقيل. مـا رأيك؟ أنـت المشرفة النـاصحـة. أخبريني، لمن أتوجه بالشكوى»

في نهايـة المطـاف أذعنـت. وبعد نزهـة المؤسسة، أوصلتنـي بسيارتهـا إلى شقتي، فعرضـت عليهـا تناول البوظة. اشتريـت قطعتين وجلسنا على الحاجـز في أصيل ذلك

اليـوم الحار الرطـب. أخبرتها عن عملـي في متاجر «باسكن روبنـز» للمثلجات عندما كنت مراهقا، وصعوبة الحفاظ على برودة الجسم عندما كنت ألبس المئزر البني وأضع القبعة. فقالت: إنها ظلت مدة سنتين أو ثلاث في مرحلة الطفولة ترفض تناول أي طعام سوى زبدة الفستق والجيلي. قلت: إنني أود لقاء عائلتها. فقالت: إن ذلك يسعدها.

أمضينا بقية الصيف معا. أخبرتها عن التنظيم الاجتماعي، والحياة في إندونيسيا، ورياضة ركوب الأمواج. وأخبرتني عن صديقات الطفولة، ورحلة قامت بها إلى باريس حين كانت في المدرسة الثانوية، وأغنيات ستيفي وندر المفضلة.

لكننـي لم أبـدأ أفهم ميشـيل حقـا إلا بعد أن التقيـت بأسـرتهـا. فقد تبين لي أن زيـارة عائلة روبنسـون أشبـه بالانضـمام فجـأة إلى كـادر العـاملين في فيلـم (Leave It to Beaver). هنالـك فرازيـر، الأب الطيب الحليـم الذي لم ينقطع يوما عـن عمله أو تفوته مباراة لابنه. وهناك ماريان، الأم الجميلة العاقلة التي تخبز كعكة أعياد الميلاد وترتب المنزل، والمتطوعة في المدرسة لتضمن أن يحسن تلاميذها سلوكهم ويؤدي المدرسون الواجب المطلوب منهم. وهناك كريغ، لاعب كرة السلة النجم الطويل القامـة، والشقيق الودود والمهذب والمسلـي، الذي يعمل مصرفيا استثماريا لكن يحلم بالعمـل في مجـال التدريب يوما ما. وهنـاك الأعمام والعمات وأبنـاء العمومة الذين يأتـون متى أرادوا ويجلسون إلى مائدة المطبخ ويأكلون ما طاب لهم، ثم يستمعون إلى مجموعـة أسطوانات موسيقى الجاز التي يحتفظ بها الجد ويضحكون ويسهرون حتى منتصف الليل.

لكن العائلة ينقصها كلب. لأن ماريان لا تحب الكلاب في المنزل.

ما جعـل هذه الصورة للأسرة الكريمة أشد تأثيرا حقيقـة أن آل روبنسون غالبوا المشقات التي نادرا ما تظهر قصصها على شاشات التلفزيون. هنالك القضايا المعتادة المتعلقـة بالعنصرية بالطبع: الفرص المحدودة المتاحة لأبوي ميشيل في شيكاغو خلال الخمسينيـات والستينيات؛ الشعور بخطر العنصرية والهلع الذي دفع عائلات البيض إلى الابتعـاد عـن الحـي؛ الطاقـة الإضافية المطلوبة مـن الآباء السـود للتعويض عن

الدخل القليل، والعنف المتصاعد في الشوارع، والملاعب التي تعاني من نقص التمويل، والمدارس المتخلفة العاجزة.

لكـن ثمة مأساة عصفت بأسرة روبنسون. فحين بلـغ والد ميشيل الثلاثين، أي في ذروة عطـاء حياته، تبـين بالتشخيص أنه يعـاني تصلب الأعضـاء والعضلات. وظل طـوال السنوات الخمس والعشرين التالية، رغم تدهور حالته، يتحمل مسؤولية عائلته دون أن يشفـق علـى نفسه: أصبح يستيقـظ في الصباح قبل ساعة مـن الموعد المعتاد للذهـاب إلى العمـل، ويكافـح لأداء كل حركة جسدية، من قيادة السيـارة إلى ارتداء قميصـه، دون أن ينسـى ابتسامته ودعابته والقبلة المعتـادة لابنته كل يوم. وداوم على الذهـاب إلى الملعب لمشاهدته ابنه ـ مع عرج خفيف في البداية ثم بمساعدة عكازين، والعرق يتصبب من رأسه الأصلع.

بعد زواجنا، ساعدتني ميشيل على فهم التأثير الخفي الذي مارسه مرض والدها علـى العائلة؛ العـبء الثقيل الـذي أجبرت الأم علـى حمله؛ الحـدود المرسومة بدقة حـول حياة الأسرة، حيـث يجب التخطيط بعناية حتى لنزهـة بسيطة من أجل تجنب المشكلات والإرباك والإحراج؛ وكيف تبدو الحياة المتخبطة مرعبة ومروعة تحت قناع الابتسامات والضحكات.

لكنني لم أجد آنذاك سوى المتعة في منزل آل روبنسون. وبالنسبة لشخص مثلي، لا يكاد يعرف أباه، وأمضى جزءا كبيرا من حياته مترحلا من مكان إلى مكان، وتبعثرت جـذوره في الاتجاهات كلها، حـرك البيت الذي بناه فرازير وماريـان روبنسون، لهما ولأبنائهمـا، توقـا جارفا للاستقـرار وإحساسا بالمـكان لم يدرك قبـلا وجودهما في داخلـه. مثلما وجـدت ميشيل في رفقتي حياة تملؤها المغامـرة والمخاطرة والسفر إلى بلاد غريبة ربما ـ أفقا أوسع مما سمحت به لنفسها سابقا.

بعد ستة أشهر من لقائنا، توفي والدها فجأة نتيجة مضاعفات عملية أجريت على كليته. عدت إلى شيكاغو ووقفت أمام قبره، ووضعت ميشيل رأسها على كتفي. فوعدته أن أعتني بابنته. وشعرت بطريقة لا تعبر عنها الكلمات بأننا أصبحنا عائلة واحدة.

يشيـع هذه الأيام الحديث عن تفكك بنية الأسرة الأمريكية. إذ يزعم المحافظون، اجتماعيا، أن العائلة التقليدية تتعرض لهجوم كاسح من أفلام هوليود ومواكب المثليين في الشوارع. في حين يشير الليبراليون إلى العوامل الاقتصادية ـ من تجمد الأجور إلى عدم كفاية الرعاية النهارية ـ التي عرضت العائلات لتهديد متزايد. ثقافتنا الشعبية تغـذي مشاعر الخوف والحذر، وتنشـر حكايات عن نساء سيبقين عانسات إلى الأبد، ورجـال راغبين عن الارتبـاط بالتزامات دائمـة، ومراهقين ينخرطـون في مغامرات جنسية متهورة لا نهاية لها. لا شيء يبدو مستقرا، كما كانت الحال في الماضي؛ أدوارنا وعلاقاتنا كلها متاحة لمن هب ودب كي يأخذها.

نظـرا لهيمنة هذه الحالة من القلـق والانزعاج، قد يكون من المفيد تذكير أنفسنا بـأن مؤسسة الزواج لـن تختفي قريبا. وصحيح أن معدلات الـزواج انخفضت بشكل ثابـت منـذ الخمسينيـات، إلا أن جزءا من هـذا الانخفاض يعـود إلى أن مزيدا من الأمريكيـين يؤخرون زواجهم لاستكمـال تعليمهم أو اختيار مهنـة راسخة لهم؛ لكن في سـن الخامسـة والأربعين، تكون 89% من النساء و83% مـن الرجال قد ارتبطوا بعلاقـة زواج مـرة واحدة على الأقـل. وما زالت 67% من العائـلات مكونة من رجل وامـرأة جمعتهمـا علاقة زواج، والأغلبية الساحقة مـن الأمريكيين ما يزالون يعدون الزواج أفضل ركيـزة للعلاقة الحميمة الشخصية، والاستقـرار الاقتصادي، وتربية ورعاية الأطفال.

ومـع ذلـك، لا يمكن إنـكار حقيقـة أن طبيعة العائلة قـد تغيرت خـلال السنوات الخمسـين الأخـيرة. وعلى الرغم من أن معدلات الطـلاق انخفضت بنسبة 21% عن الذروة التـي بلغتها في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات، ما زال نصف الزيجات الأولى ينتهـي بالطـلاق. ومقارنة بأجدادنا، نعد أكثر تساهـلا مع العلاقات الجنسية السابقـة على الـزواج، وأكثر استعدادا للمعاشـرة دون زواج، وميـلا إلى العيش دون شريك. نحن أيضا أكثر ميلا إلى تربية الأطفال في أسر غير تقليدية؛ 60% من جميع حـالات الطلاق تخلف أطفالا، و33% من الأطفـال يولدون من علاقات غير شرعية، و34% من الأطفال لا يعيشون في كنف آبائهم البيولوجيين.

تشتد حدة هذه النزعات بين الأمريكيين الأفارقة، حيث من العدل القول إن العائلة النووية على شفا الانهيار. ومنذ عام 1950، انخفض معدل زواج النساء السود من 62% إلى 36%. وبين عامي 1960 ـ 1995، انخفض عدد الأطفال الأمريكيين الأفارقة الذين يعيشون مع أبوين متزوجين بأكثر من 50%؛ واليوم، يعيش 54% من الأطفال السود في أسر وحيدة الأب/ الأم، مقارنة بنسبة 23% لدى الأطفال البيض.

فيما يتعلق بالبالغين، تختلط تأثيرات هذه التغييرات على أقل تقدير. إذ تشير الأبحاث والدراسات إلى أن المتزوجين، في المعدل المتوسط، يعيشون حياة أكثر صحة وثراء وسعادة، لكن ذلك لا يعني القول إن الرجال والنساء يستفيدون من السقوط في فخ زيجات سيئة أو مهينة. ومن المؤكد وجود معنى منطقي وراء قرار الأعداد المتزايدة من الأمريكيين بتأخير زواجهم؛ إذ لا يقتصر الأمر على أن اقتصاد المعلومات اليوم يتطلب مزيدا من التعليم والدراسة فقط، بل أظهرت الدراسات أن الأشخاص الذين ينتظرون حتى بلوغ أواخر العشرينيات أو أوائل الثلاثينيات من العمر للزواج، يرجح أن تستمر حياتهم الزوجية مدة أطول من أولئك الذين يتزوجون في عمر مبكر.

لكن مهما كان حجم التأثير في البالغين، فإن هذه النزعات أضرت بالأطفال. فالعديد من الأمهات العازبات ـ ومنهن أمي ـ يكافحن ويجاهدن جهاد الأبطال من أجل أولادهن. ومع ذلك، يزيد احتمال فقر الأطفال الذين يعيشون في كنف أمهات عازبات بمقدار خمس مرات مقارنة بالأطفال الذين يعيشون في كنف والديهم الاثنين. والأطفال الذين يعيشون تحت رعاية الأمهات العازبات أكثر احتمالا للتسرب من المدرسة وإقامة علاقات جنسية (ظاهرة الآباء والأمهات المراهقين)، حتى حين نلغي عامل الدخل. تشير الأدلة إلى أن الأطفال الذين يعيشون في كنف آبائهم وأمهاتهم البيولوجيين يتفوقون، في المعدل الوسط، على الذين يعيشون مع غير آبائهم أو مع أبوين لا تجمعهما علاقة زواج شرعية.

في ضوء هذه الحقائق، تعد السياسات التي تقوي رابطة الزواج لمن يختارونه وتعيق الولادات غير المرغوبة خارج إطار الزواج أهدافا منطقية ومعقولة يجب السعي إليها. على سبيل المثال، يتفق معظم الناس على وجوب ألا تعاقب برامج الرعاية الاجتماعية

الاتحاديــة وقانون الضرائب المتزوجين؛ ولذلك تحظى جوانب إصلاح برنامج الرعاية الاجتماعيــة التي أقرت في عهد كلينتون وتلك العناصر المتضمنة في الخطة الضريبية التي وضعها بوش بدعم قوي من الحزبين كليهما.

الأمر ذاته ينطبق على توقي الحمل في سن المراهقة. إذ يتفق الجميع على أن حمل المراهقــات يعرض الأم والطفل معا لأخطار أنواع المشــكلات كلها. ومنذ عام 1990، انخفض معدل حمل المراهقات بنسبة 28%، وهذا خبر سار دون شك. لكن ولادات الأمهــات المراهقات ما تزال تمثل قرابة ربع الــولادات التي تحدث خارج إطار الزواج الشرعــي، والأمهات المراهقــات أكثر احتمالا لإنجاب مزيد مــن الأطفال خارج إطار الــزواج الشرعي مع تقدمهــن بالعمر. لقد تبين أن للبرامــج المجتمعية المرتكز سجلا مثبتــا في توقــي حالات الحمل غير المرغــوب فيها ـ عبر تشجيــع التعفف والاستخدام الصحيح لوسائل منع الحمل ـ وتستحق دعما واسع النطاق.

أخيرا، تظهر الأبحاث الأولية أن ورشات العمل التثقيفية فيما يتعلق بالزواج يمكن أن تحــدث فارقــا حقيقيا في مساعدة المتزوجين على البقــاء معا وتوطيد رابطة أطول عمــرا بينهم. ويجب أن يتفــق الجميع على أهمية توسيع مــدى وإتاحة هذه الخدمات لتشمل الأزواج من ذوي الدخل المحدود، ربما بالتناغم مع التدريب المهني والتوظيف، والرعاية الطبية الشاملة، وغيرها من الخدمات المتاحة.

لكــن فيمــا يتعلــق بالعديد من المحافظــين (اجتماعيــا)، لا تعد هــذه المقاربات البدهيــة كافية. فهم يريدون العودة إلى حقبة سالفــة، حين كانت الجنسانية خارج إطار الزواج تتعرض إلى العقاب والعار، والحصول على الطلاق أشد صعوبة بكثير، ولا يحقق الزواج الرضى الشخصي فقط، بل يحدد بدقة الأدوار الاجتماعية للرجال والنساء. وبرأيهم، فإن أي سياسة حكومية تبدو أنها تكافئ أو حتى تقف على الحياد إزاء مــا يعدونــه سلوكا فاجــرا ومنافيا للأخلاق ـ مثل تقــديم وسائل تحديد النسل للشبــاب، أو خدمات الإجهاض للنساء، أو الرعايــة الاجتماعية للأمهات العازبات، أو الاعــتراف القانــوني بالروابط التي تجمع المثليين ـ يبخــس قيمة وأهمية الرابطة الزوجيــة. مثــل هذه السياسات تقربنــا خطوة، كما تقول الحجــة، نحو عالم جريء

جديد تمحى فيه فوارق الجندر (النوع الاجتماعي)، ويصبح الجنس متعة خالصة، والزواج رابطة يسهل حلها، والأمومة حالة مزعجة، والحضارة نفسها ترتكز على قاعدة من الرمال المتحركة.

أتفهم الدافع لاستعادة إحساس بالنظام إلى ثقافة في حالة من التغيرات المتتابعة والمستمرة. وأقدر بالتأكيد رغبة الآباء في حماية أبنائهم من القيم التي يعدونها وبيلة وضارة؛ إحساس أتقاسمه معهم حين أستمع إلى كلمات الأغاني من المذياع.

لكن على وجه العموم، لا أتعاطف كثيرا مع أولئك الذين يحملون الحكومة مهمة فرض الأخلاق الجنسية بالقوة. وعلى شاكلة معظم الأمريكيين، أعد القرارات المتعلقة بالجنس والزواج والطلاق والحمل من الأمور الشخصية ــ وتقع في صميم نظامنا القائم على الحرية الفردية. أما حين تزيد مثل هذه القرارات الشخصية احتمال إيقاع الأذى البالغ بالآخرين ـ كإساءة معاملة الأطفال، أو سفاح القربى، أو تعدد الزوجات أو الأزواج، أو العنف الأسري، أو الإخفاق في رعاية وإعالة الأولاد ـ يصبح من حق المجتمع وواجبه التدخل (أولئك الذين يعتقدون أن الجنين كائن حي يتمتع بكامل حقوق البشر يصنفون الإجهاض ضمن هذه الفئة). وفيما وراء ذلك، ليست لدي رغبة في تدخل الرئيس أو الكونغرس أو البيروقراطية الحكومية لتنظيم ما يحدث في غرف نوم الأمريكيين.

فضلا عن ذلك، لا أعتقد أننا نقوي ونعزز الأسرة عبر إجبار أو إكراه الناس على إقامة علاقات نعدها مفيدة لهم ـ أو عبر إنزال العقاب بأولئك الذين لا يلتزمون معاييرنا فيما يتعلق بالآداب السلوكية الجنسية. أريد أن أشجع الشباب على إظهار مزيد من الاحترام للعلاقة الجنسية والحميمة، وأصفق استحسانا للآباء والتجمعات الكنسية والبرامج المجتمعية التي تنقل وتبث هذه الرسالة. لكنني لست مستعدا لقبول حصر المراهقة في حياة من المعاناة بسبب حرمانها من وسائل منع الحمل. أريد من كل شريكين أن يفهما قيمة ما يستتبعه الزواج من التزام وتضحيات. لكنني لست مستعدا لاستخدام قوة القانون لإبقائهما معا بغض النظر عن ظروفهما الشخصية.

لربمـا تمنعني طرائق القلب البشري الشديدة التنـوع، وحياتي التي تفتقد الكمال والمثاليـة، من تنصيب نفسي قاضيا مؤهلا للحكـم في محكمة الأخلاق. أعرف تماما أننـا طوال السنـوات الأربع عشرة من زواجنا، لم نختلف أنـا وميشيل نتيجة ما يفعله الآخرون في حياتهم الشخصية.

ما تجادلنا حوله ـ مرارا وتكرارا ـ هو كيف نوازن بين العمل والعائلة بطريقة عادلة لميشيـل ومفيـدة للبنتين. لسنا الوحيدين في ذلك. في الستينيـات وأوائل السبعينيات، مثلـت العائلـة التي ترعرعت فيها ميشيـل القاعدة لا الاستثناء ـــ أكثر من 70% من العائلات لديها والدة في المنزل وتعتمد على الوالد بوصفه المعيل الوحيد.

اليـوم، انعكست هـذه الأرقـام. 70% من الأسر التـي لديها أطفـال يعيلها أبوان عامـلان أو أب أو أم عاملـة. أما النتيجة فهي ما دعتها مستشارتي في شؤون السياسة والخبـيرة في شؤون الأسـرة العاملة، كارين كورنبلوه، «عائلـة الحواة»التي تلعب بعدة كرات في وقت واحد: حيث يكافح الأبوان لدفع الفواتير، والعناية بالأطفال، والحفاظ على الأسرة والمنزل، والمحافظة على العلاقة بينهما. لكن أداء جميع هذه المهمات معا يوقـع أضرارا بحياة الأسـرة. وكما شرحت كارين حين عملـت مديرة لبرنامج العمل والأسـرة في مؤسسـة أمريكا الجديدة، وأدلـت بشهادتها أمام لجنـة مجلس الشيوخ الفرعية المعنية بالأطفال والأسر:

> اليوم، تقلصت المدة التي يقضيها الأمريكيون مع أطفالهم أسبوعيا بمعدل 22 ساعـة مقارنة بحالهم عام 1969. وملايين الأطفال يتركون في مراكز غـير مرخصة للرعاية النهارية كل يوم ـــ أو وحدهم في المنزل حيث يقوم جهاز التلفزيون مقام جليسة الأطفـال. وخسرت الأمهات العاملات زهاء ساعـة من النوم كل يوم في محاولتهن للتكيف مع الوضع. وأكدت البيانات التـي جمعت حديثا أن الآباء الذين لديهم أطفال في سن المدرسة يظهرون أمارات قوية على الإجهاد والتوتر ـ وهذه تؤثر في إنتاجيتهم وعملهم ـ حين تفتقـد وظائفهم المرونة ولا يجدون رعاية نهاريـة مستقرة لهم بعد انتهاء الدوام في المدرسة.

هل يبدو ذلك كله مألوفا؟

يشير العديد من المحافظين (اجتماعيا) إلى أن هذا السيل العارم من النساء اللاتي يخرجن من المنزل وينطلقن إلى العمل ما هو إلا عاقبة مباشرة للأيديولوجية النسوية، ومن ثم يمكن عكسه إذا عادت المرأة إلى رشدها ورجعت إلى أداء دورها التقليدي كربة منزل. صحيح أن الأفكار المتعلقة بالمساواة لعبت دورا حاسما في تغيير مكان العمل؛ ومثلت الفرصة المتاحة للمرأة لكي تعمل وتحقق الاستقلال الاقتصادي وتظهر مواهبها على قدم المساواة مع الرجل، أحد أعظم الإنجازات في الحياة الحديثة في أذهان معظم الأمريكيين.

لكن فيما يتعلق بالنساء الأمريكيات في المعدل المتوسط، لا يعد قرار العمل خارج المنزل مجرد أمر يتصل بتغيير المواقف، بل بعدم تخطي الإنفاق حدود الدخل.

لنفكر بالحقائق مليا. خلال السنوات الثلاثين الماضية، ازداد ما يكسبه الرجل الأمريكي العادي بنسبة تقل عن 1% بعد حساب التضخم. في هذه الأثناء، ارتفعت تكاليف كل شيء، من السكن إلى الرعاية الصحية إلى التعليم، بشكل ثابت ومستمر. أما ما منع الأغلبية الساحقة من العائلات الأمريكية من السقوط من الطبقة الوسطى فهو راتب الأم العاملة. في كتاب اليزابيث وارن واميليا تياغي «فخ المدخولين»، إشارة إلى أن الدخل الإضافي الذي تجلبه الأمهات إلى المنزل لا يبدد على المواد الكمالية. بل يذهب جميعه تقريبا على شراء ما تعتقد الأسر أنه استثمارات في مستقبل الأولاد ـ تعليم ما قبل سن المدرسة، رسوم الجامعة، والأهم منزل في حي سكني آمن فيه مدارس عامة جيدة. وفي الحقيقة، فإن نتيجة هذه التكاليف الثابتة والنفقات الإضافية للأم العاملة (خصوصا تكاليف الرعاية النهارية للأطفال والسيارة الثانية)، تحصل الأسرة ذات المدخولين على دخل أقل تحت تصرفها ـ ودرجة أدنى من الأمان المالي ـ مقارنة بنظيرتها المعتمدة على مدخول واحد قبل ثلاثين سنة.

إذن، هل يمكن للأسرة العادية العودة إلى الحياة المعتمدة على المدخول الواحد؟ يتعذر ذلك حين تعتمد كل أسرة في الحي على مدخولين اثنين وترتفع أسعار البيوت

وأقساط المدارس ورسوم الجامعة. وأظهرت وارن وتياغي أن الأسرة المعتمدة على معيل واحد التي تحاول اليوم الحفاظ على أسلوب حياة الطبقة الوسطى يقل دخلها المتوفر بنسبة 60% عن نظيرتها في السبعينيات. بكلمات أخرى، يعني بقاء الأم في المنزل بالنسبة لمعظم العائلات العيش في أحياء سكنية أقل أمانا وانتساب أولادها إلى مدارس أدنى مستوى.

معظم الأمريكيين ليسو مستعدين لاتخاذ هذا الخيار. بدلا من ذلك، يبذلون قصارى جهدهم ضمن الظروف السائدة، وهم يعرفون أن ذلك النوع من الأسرة التي ترعرعوا فيها ـ الأسرة التي ربى فيها فرازير وماريان روبنسون أولادهما ـ أصبح من الأصعب الحفاظ عليه.

اضطر الرجال والنساء معا إلى التكيف مع هذه الحقائق الجديدة. لكن يصعب مخالفة ميشيل حين تلح بإصرار على أن أعباء الأسرة الحديثة يقع حملها الأكبر على عاتق النساء.

خلال السنوات القليلة الأولى من زواجنا، قمنا أنا وميشيل بإجراء التعديلات المعتادة التي ينبغي على المتزوجين إجراؤها: تعلم قراءة الحالة المزاجية، وقبول الخصال والعادات الغريبة لكل منا. ميشيل تحب الاستيقاظ باكرا ولا تستطيع مغالبة النعاس بعد العاشرة ليلا. أنا مغرم بالسهر ويمكن أن تسوء طباعي قليلا (أغدو لئيما كما تقول ميشيل) خلال نصف الساعة الأولى من نهوضي من السرير. نظرا لأنني كنت أعمل على تأليف كتابي الأول من جهة، وربما لأنني عشت معظم حياتي بوصفي الطفل الوحيد، كثيرا ما كنت أمضي الأمسيات في مكتبي خلف شقتنا؛ وما عَدَدْتُهُ أمرا عاديا ترك ميشيل تشعر بالوحدة. اعتدت على الدوام ترك الزبدة خارج الثلاجة بعد تناول الفطور ونسيان ربط كيس الخبز؛ في حين لا تعد ميشيل جمع بطاقات وقوف السيارة في المرأب واجبا مفروضا على أحد.

لكن على الأغلب، كانت تلك السنوات المبكرة مترعة بالمسرات العادية ـ الذهاب إلى السينما، تناول العشاء مع الأصدقاء، حضور الحفلات الموسيقية بين الحين

والآخـر. كنا نعمل ونكـدح معا: كنت أمارس المحامـاة في مؤسسة صغيرة متخصصة بقضايـا حقوق الإنسان، وبـدأت التدريس في كلية الحقـوق بجامعة شيكاغو، في حين قـررت ميشيل ترك المحاماة، أولا للعمـل في إدارة التخطيط في شيكاغو، ثم في إدارة فرع شيكاغو لبرنامج خدمات وطني يدعى «بوبليك الايز» تقلصت المدة التي نقضيها معـا أكثر حين قررت الترشح لمجلس شيوخ الولاية، لكن على الرغم من أوقات الغياب الطويلـة ونفور ميشيل من السياسة عموما، فقد أيدت القرار؛ كانت تقول: «أعلم أنك تريـد ذلك» في الليـالي التي كنت أقضيها في سبرينغفيلـد، كنا نتحدث ونضحك عبر الهاتف، ونتقاسم الدعابات والإحباطات الناجمة عن ابتعاد أحدنا عن الآخر، ثم أنام قرير العين وواثقا من الحب الذي يجمعنا.

ثـم ولدت ماليا، في الرابع من يوليو، ذكـرى استقلالنا، هادئة وجميلة، لها عينان واسعتان ساحرتان بدا وكأنهما تقرآن العالم لحظة فتحتهما. أتت ماليا في وقت مثالي لكلينـا: كان المجلـس والجامعـة في عطلة الصيـف، وتمكنت من قضـاء كل مساء في المنزل؛ في هذه الأثناء، قررت ميشيل قبول عمل بدوام جزئي في جامعة شيكاغو، بحيث تستطيع قضاء مزيد من الوقت مع الطفلة، ولن يبدأ الدوام في الوظيفة الجديدة قبل تشريـن الأول/ أكتوبر. بقينا طوال ثلاثة أشهر ساحرة معا، نتجادل ونتحاور وتنتابنا الهواجـس حول الطفلة: نقترب من سريرهـا لنتيقن أنها تتنفس، نستجدي بالملاطفة ابتسامتهـا، نغنـي لهـا، نلتقط الصور معهـا، إلى درجة أننا بدأنا نقلـق على عينيها. وفجـأة، تبـين أن اختلاف نظامنا الحيوي كان مفيدا: حين تنـام ميشيل باكرا، أسهر أنا حتى الواحدة أو الثانية صباحا، أغير «الحفاضات»، وأدفئ الحليب، وأشعر بأنفاس ابنتي الرقيقة على صدري حين أهزها لتنام، وأحاول أن أحزر أحلامها الطفولية.

لكن حين أتى الخريف ـ عندما بدأت الدروس في الجامعة، وبدأ الفصل التشريعي في المجلس، وعادت ميشيل إلى العمل ـ لاحت نذر التوترات في علاقتنا. كثيرا ما كنت أغيـب عن المنزل ثلاثة أيـام متواصلة، وحتى حين أعـود إلى شيكاغو، كنت مضطرا لحضـور الاجتماعـات المسائية، أو تصحيح أوراق امتحانـات الطلاب، أو كتابة بعض الملخصـات. أمـا ميشيـل فقد وجـدت أن العمل بـدوام جزئي يتوسع ويمتـد بطريقة

مضحكـة. عثرنا على جليسة أطفال رائعة مقيمة في المنزل لرعاية ماليا حين نكون في العمل، لكن راتبها زاد الضغط على ميزانيتنا.

لم يعـد لدينـا وقـت لتبـادل الحديث، فضلا عـن الغـرام، بسبب التعـب والشدة والإرهـاق. وحين بدأت حملتي الانتخابية المنكـودة إلى مجلس شيوخ الولاية، لم تخف ميشيـل امتعاضهـا من قراري. فجـأة لم يعد من المحبب لديهـا امتناعي عن تنظيف المطبخ، ولم تعد تبادلني قبلة الوداع في الصباح. وبحلول الوقت الذي ولدت فيه ساشا ـ التـي شابهت أختها في الجمـال والهدوء – لم تعد زوجتي تستطيع احتواء غضبها على ما يبدو.

كانـت تقول لـي: «أنت لا تفكر إلا بنفسـك. لم أحسب أبـدا أنني سأرعى عائلة وحدي»

استفزتنـي مثل هـذه الاتهامات؛ واعتقدت أنها ظالمة. فعلـى الرغم من كل شيء، أنـا لا أذهـب للسهر والعربدة مع أصدقائي كل ليلة. ولا أطالبها بالكثير ـ إذ لم أنتظر منهـا أن ترفـو جواربي أو تحضر العشاء وتنتظرني حـين أعود إلى المنزل. وكنت كلما استطعـت أسهم في رعاية الطفلتين. وكل ما أطلبه بالمقابل بعض الرقة والحنان. لكن بـدلا من ذلك، وجدت نفسي في خضم مفاوضـات لا تنتهي حول جميع تفاصيل إدارة شـؤون المنـزل، وأمام لوائح طويلة بالمهمات التي يجب أن أؤديها أو نسيت أداءها، وفي موقـف محـرج دوما. ذكّـرت ميشيل أننا عائلـة محظوظة إلى حـد لا يصدق مقارنة بمعظـم العائلات الأخرى. وأنني أحبها وأعشـق البنتين على الرغم من جميع مثالبي وعيوبي. وأعتقد أن حبي سيكون كافيا. فبرأيي، ليس ثمة سبب يدعوها للشكوى.

لم أبـدأ تقديـر حجم مـا عانته ميشيـل آنذاك، وكفاحهـا وكدهـا المميزين للأم العاملـة اليوم، إلا بعد تأمل عميق واختبارات ومحـن تلك السنين وذهاب البنتين إلى المدرسـة. فبغض النظر عن مدى الحرية التي أحببت أن أتمتع بها ـ وكم قلت لنفسي إننـا شريكان متساويان، وأحلامها وطموحاتها مهمـة مثل طموحاتي وأحلامي ـ فإن الحقيقـة أن ميشيـل، ولست أنـا، هي التي كان مـن المطلوب منها إجـراء التعديلات

الضروريــة على حياتها حالما أتت البنتــان. صحيح أنني قدمت بعض المساعدة، لكنها كانــت وفقــا لشروطي، وتبعــا لبرنامجي. في هــذه الأثناء، وجب عليهــا أن تتخلى عن عملها مؤقتا، وترعى البنتين كل يوم. فإذا مرضت إحداهما، أو لم تأت الجليسة، كان عليها أن تتصل وتعتذر عن الحضور إلى العمل.

لم يقتصــر الأمر علــى أن المهمة الشاقة للتوفيق بين العمل ورعاية الطفلتين جعلت وضــع ميشيل علــى هذه الدرجة من الصعوبة فقط. بل حقيقــة أنها لم تكن تبلي بلاء حسنــا في أي منهمــا من وجهــة نظرها. بالطبــع لم يكن ذلك صحيحــا؛ فرب عملها كان معجبــا بهــا، وشهد الجميع بنجاحهــا كأم. لكنني بدأت أعــرف أن هناك رؤيتين اثنتــين تتصارعان في ذهنها ـ الرغبة في أن تشبه أمها بكل ما اتصفت به من صلابة وموثوقيــة، وحب ورعاية لأولادها؛ والرغبة في التفوق في مهنتها، وترك أثر يخلدها في هذه الدنيا، وتنفيذ جميع تلك الخطط التي عرفتها في أول يوم التقينا معا.

في النهايــة، أدين بالفضل لقوة ميشيل ـ استعدادها لمعالجة تلك التوترات وتقديم التضحيات من أجلي ومن أجل البنتين ـ على تجاوزنا تلك الأوقات الصعبة. لكن كان لدينــا أيضا موارد في متناولنــا لم يمتلكها العديد من الأســر الأمريكية. أولا، وضعنا كمهنيــين سمح لنا بإعــادة ترتيب برامجنــا والتعامل مع حالات الطــوارئ (أخذ يوم إجــازة مثــلا) دون التعرض لخطر فقدان الوظيفة. في حــين أن 57% من الأمريكيين لا يتمتعــون بهذا الــترف؛ وفي الحقيقة، فــإن معظمهم لا يستطيعون أخــذ يوم إجازة لرعايــة أطفالهــم دون خسارة أجره أو حسمه من أيام الإجــازة السنوية. وفيما يتعلق بالآباء الذين يحاولون وضع برامج وجداول مواعيد خاصة بهم، كثيرا ما تعني المرونة العمل في وظيفة مؤقتة أو بدوام جزئي دون ارتقاء على السلم الوظيفي ودون تعويضات ومكاسب إضافية.

كنــا أنــا وميشيل نحصل أيضــا على دخل كاف لدفع جميع نفقــات الخدمات التي تساعــد على التخفيف من حــدة الضغوط التي تعاني منها الأســر التي يعيلها الأبوان معا: رعايــة موثوقة ويعتمد عليها للأطفال، جليسة أطفال كلما احتجنا إليها، وجبات عشــاء مــن المطاعم نحضرها حين لا نجد الوقت أو الطاقــة للطبخ في المنزل، خادمة

تأتـي مـرة في الأسبوع لتنظيف البيـت، مدرسة حضانـة خاصة للبنتـين، معسكرات صيفيـة حين بلغتا عمرا مناسبا. مثل هذه المساعـدة بعيدة، ماليا، عن متناول معظم الأسـر الأمريكية. فتكلفة الرعاية النهارية مرتفعة على نحو خاص؛ والولايات المتحدة هـي الوحيدة من بين البلدان الغربيـة التي لا توفر خدمات الرعاية النهارية المدعومة من الحكومة والجيدة النوعية إلى عمالها جميعا.

أخـيرا، كانت والدة ميشيل تسكن على بعد خمسـ عشرة دقيقة من بيتنا. صحيح أنهـا في أواخـر الستينيات لكنها تبـدو أصغر عمرا بعشر سنـين، وفي السنة الماضية، حين عادت ميشيل إلى العمل بدوام كامل، قررت ماريان (الأم) تخفيض عدد ساعات عملهـا في المصرف، بحيث تستطيع أخذ البنتين من المدرسة والعناية بهما في فترة ما بعـد الظهر. مثل هذا العون ليس متاحا للعديد من العائلات الأمريكية؛ وفي الحقيقة، فإن الوضع معكوس بالنسبة للعديد من الأسر ـ تقديم أحد أفراد العائلة الرعاية لأب طاعن في السن يعد أولوية من أولوياتها.

وبالطبـع، يستحيل على الحكومة الاتحادية أن تضمن لـكل أسرة «حماة» مدهشة تتمتـع بصحة جيـدة وشبه متقاعدة وتقيـم في منزل قريب. لكـن إذا كنا نهتم جديا بقيـم العائلة، يمكننا اتبـاع سياسات مناسبة تجعل العمل خـارج المنزل وداخله أمرا أكـثر سهولة. نستطيع البدء بإنشاء مراكز جيدة النوعية للرعاية النهارية متاحة لكل أسـرة تحتاجها. فخلافا لمعظم البلدان الأوروبية، تفتقر الرعاية النهارية في الولايات المتحـدة إلى التخطيط والتنسيق. ويمكن لتحسين معايير الترخيص والتدريب لمراكز الرعاية النهارية، وتوسيع الائتمانات الضريبية لرعاية الأطفال على المستوى الاتحادي ومستـوى الولاية، وتقديم الدعـم الحكومي للأسر المحتاجة، يمكنهـا جميعا أن توفر لآبـاء أسر الطبقة الوسطى والمحدودة الدخل شيئا من هدوء البال خلال يوم العمل ـ وتفيد أرباب العمل عبر خفض معدلات التغيب عن العمل.

حـان الوقت أيضا لإعادة تنظيم وتصميم مدارسنا ـــ لا من أجل الآباء والأمهات العاملـين فقط، بل لتهيئـة وإعداد أطفالنا لعـالم تزداد فيه حـدة المنافسة. لقد أكد عدد لا يحصى من الدراسات الفوائد التعليمية لبرامج ما قبل مرحلة المدرسة، ولهذا

السبب تسعى حتى الأسر التي لا يعمل فيها الأبوان إلى إلحاق أطفالها بها. والشيء ذاته ينطبق على زيادة ساعات الدوام في المدرسة، والمدارس الصيفية، وبرامج ما بعد الدوام في المدرسة. ولا ريب في أن إتاحة هذه الفوائد لجميع الأطفال سوف تكلف مالا، لكن بوصفها جزءا من الجهود الواسعة لإصلاح حال المدارس، يجب علينا، كمجتمع، أن نستعد لتحمل التكلفة.

فوق كل شيء، نحن بحاجة إلى التعاون مع أرباب العمل لزيادة مرونة ساعات الدوام. إدارة كلينتون اتخذت خطوة في هذا الاتجاه عبر قانون الأسرة والإجازة الطبية، لكن لأنه ينطبق على الإجازة غير مدفوعة الأجر والشركات التي تضم أكثر من خمسين موظفا فقط، لم يتمكن معظم العمال الأمريكيين من الاستفادة منه. ومع أن جميع الدول الغنية الأخرى (باستثناء واحدة) تتبع صيغة من صيغ إجازة الأمومة المدفوعة الأجر، إلا أن معارضة قطاع الأعمال للإجازة المدفوعة الأجر كانت ضارية، وذلك بسبب القلق من التأثير السلبي على الأعمال التجارية الصغيرة.

مع قليل من الإبداع، يجب أن نتمكن من التغلب على هذه الورطة. كاليفورنيا بدأت حديثا تطبيق الإجازة المدفوعة الأجر، من خلال صندوق ضمان العجز، لكن مع تيقن ألا يتحمل أرباب العمل وحدهم التكلفة.

يمكننا أيضا التعامل بمرونة مع الآباء والأمهات لتمكينهم من تلبية احتياجاتهم اليومية. والعديد من الشركات الكبرى تعرض على موظفيها دواما مرنا، وهذا أدى إلى ارتفاع معنوياتهم وتقليص معدل تبديل الوظائف. أما بريطانيا فقد ابتكرت مقاربة جديدة لحل المشكلة ـ كجزء من «حملة التوازن بين العمل والحياة»التي تحظى بشعبية كبيرة، حيث يحق للآباء الذين تقل أعمار أطفالهم عن ست سنوات الطلب من أرباب العمل تغيير موعد دوامهم. صحيح أن أرباب العمل ليسوا ملزمين بالموافقة، لكن عليهم الاجتماع مع الموظفين للتفكير بالأمر؛ ونجح حتى الآن ربع الآباء البريطانيين المتمتعين بهذا الحق في العمل بدوام يناسب الأسرة دون حدوث أي انخفاض في الإنتاجية. ومع توليفة تجمع رسم مثل هذه السياسة المبتكرة، والمساعدة التقنية، وزيادة الوعي، يمكن للحكومة أن تعين الشركات والمنشآت التجارية على مساعدة موظفيها بنفقات رمزية.

وبالطبـع لا يحتاج أي من هذه السياسات إلى منع العائلات من إبقاء أحد الأبوين في المنزل، بغض النظر عن التضحيات المالية. ففيما يتعلق ببعض العائلات، قد يعني ذلـك حرمانها مـن بعض وسائل الراحة المادية. وبالنسبـة لغيرها، قد يعني الدراسة في المنـزل، أو الانتقال إلى حي تنخفض فيـه تكلفة المعيشة. وبالنسبة لعائلات أخرى، قد يضطر الأب إلى البقاء في المنزل ـ مع أن الأم تقوم بدور مقدم الرعاية الرئيس في غالبية الأسر.

ومهمـا كانـت الحالة، يجب احترام مثل هـذه القرارات. فـإذا أصاب المحافظون بشـيء فهـو أن ثقافتنا الحديثة تخفق أحيانا في تقدير قيمـة المساهمات الاستثنائية، العاطفيـة والمالية ـــ التضحيات والكدح ـــ لربة المنزل. أما ما أخطـأ فيه المحافظون فهـو الإصرار على أن هذا الدور التقليـدي أصيل وفطري ـ نموذج الأمومة الأفضل أو الوحيد. أريد لابنتي أن تختار ما هو أفضل لها ولأسرتها. ولن يعتمد ذلك على جهدها وموقفهـا فقط، بل على رجال ـــ ومجتمع أمريكي ـ يحترمـون ويستوعبون الخيارات التي تتخذها، كما علمتني ميشيل.

«مرحبا يا أبي»

«مرحبا يا حلوتي»

إنـه أصيل يوم الجمعـة، وقد عدت إلى البيت مبكرا لأرعـى البنتين عندما تذهب ميشيـل إلى الحلاق. عانقـت ماليا ولاحظت وجود فتاة شقـراء في مطبخنا، ترمقني عبر نظارتين كبيرتين.

سألت «من هذه؟»

«هذه سام، جاءت لنذهب للعب معا»

«مرحبـا يا سام»، ومددت يدي فترددت قبل أن تصافحني. ونظرت إليَّ ماليا غير مصدقة.

«اسمع يا أبي.. يجب ألا تصافح الأطفال»

«ألا تفعلون ذلك؟»

قالت ماليا: «لا. حتى المراهقين لا يتصافحون. لربما لم تلاحظ، لكننا في القرن الحادي والعشرين»، ونظرت إلى سام التي كبحت ابتسامة.

«وماذا تفعلون في القرن الحادي والعشرين؟»

«نكتفي بقول: مرحبا، وأحيانا نلوح. هذا يكفي»

«أجل. آمل أنني لم أسبب لك إحراجا»

ابتسمت ماليا وقالت: «لا بأس يا أبي. أنت لا تعرف، فقد اعتدت مصافحة الكبار»

«هذا صحيح. أين أختك؟»

«في الطابق العلوي»

صعدت إلى الطابق العلوي لأجد ساشا تقف بملابسها الداخلية وصدرية وردية. عانقتني ثم قالت إنها لا تجد بنطالا قصيرا تلبسه. بحثت في الخزانة فوجدت واحدا أزرق اللون فوق الدرج.

«ما هذا؟»

عبست ساشا لكنها أخذته على مضض ولبسته. بعد بضع دقائق جلست في حضني.

«هذا البنطال ليس مريحا يا أبي»

عدنا إلى الخزانة مرة أخرى وفتحنا الدرج ووجدنا بنطالا قصيرا آخر، أزرق اللون أيضا. سألتها: «ماذا عن هذا البنطال؟»

قطبت مجددا، وبدت نسخة مصغرة عن أمها. دخلت ماليا وسام لمراقبة الأزمة.

قالت ماليا مفسرة: «ساشا لا تحب هذه السراويل»

التفت إلى ساشا وسألتها عن السبب. نظرت إلي بحذر وكأنها تقيس طول قامتي.

obeikandl.com

قالت أخيرا: «الوردي والأزرق لا يتناسقان»

قهقهت ماليا وسام. حاولت أن أبدو متجهما مثلما تفعل ميشيل في مثل هذه الظروف، وأمرت البنت بارتداء البنطال. أطاعت، لكنني أدركت أنها تنفذ رغبتي.

حينما يتعلق الأمر بالبنتين، لا يخدع أسلوبي الصارم أحدا.

ومثل العديد من الرجال اليوم، نشأت دون وجود أب في المنزل. فقد انفصل أبي وأمي بالطلاق حين كان عمري سنتين، ولم أعرف أبي إلا عبر الرسائل التي كان يبعث بها أو الحكايات التي ترويها أمي وجدتي. كان هناك رجال في حياتي ـ عمي زوج أمي الذي عشنا معه أربعة أعوام، وجدي الذي ساعد جدتي في تربيتي، وكلاهما رجل طيب أبدى نحوي كل مودة ورقة ولطف. لكن علاقاتي معهما كانت بالضرورة جزئية وغير مكتملة. في حالة عمي، كان ذلك نتيجة المدة المحدودة التي قضيناها معا وطبيعته المتحفظة. وصحيح أنني كنت مقربا من جدي، لكنه كان طاعنا في السن ويعاني مشكلات كثيرة بحيث لم يتمكن من توجيهي.

النساء، إذن، هن اللاتي وفرن الاستقرار في حياتي ـ جدتي التي استطاعت بقدرتها العملية العنيدة إنقاذ الأسرة من الغرق، وأمي التي تمكنت بما قدمته من حب وما تمتعت به من صفاء الروح من الإبقاء على عالمنا أنا وشقيقتي مركزا. وبسبب تضحياتهما لم أشعر بالحاجة قط إلى أي شيء مهم. ولسوف آخذ منهما القيم التي استهديت بهديها حتى اليوم.

ومع ذلك، أدركت حين كبرت مدى الصعوبة التي واجهتها أمي وجدتي في تربيتنا دون وجود رجل قوي في البيت. شعرت أيضا بالتأثير الذي يخلفه غياب الوالد في الطفل. وقررت أن أحول عدم تحمل والدي مسؤوليته تجاه أولاده، وبعد عمي عني، وإخفاقات جدي، إلى دروس استخلص منها العبر، وأن يكون لأولادي أب يعتمدون عليه.

بالمعنى الأساس، حققت نجاحا في هذا السياق. فزواجي مستمر وناجح ولم أتردد في إعالة أسرتي. وأنا أحضر الاجتماعات التي تضم الآباء والمدرسين والحفلات

المدرسيـة، ولا ينقصـ ابنتيَّ الحنان والعطف والحب. ومع ذلـك، تظل طاقاتي كزوج وأب، من بين جميع المجالات الأخرى، محل شك وريبة.

أدرك أننـي لست الوحيد في ذلك؛ فعلى مستوى مـن المستويات، أعاني العواطف المتناقضـة ذاتهـا التي تـلازم الآبـاء الآخرين في وضـع اقتصادي متقلـب ومعايير اجتماعيـة متغيرة. فصورة الأب في خمسينيات القـرن العشرين ـ إعالة أسرته عبر وظيفـة يمتد الـدوام فيها من التاسعة صباحـا إلى الخامسة مسـاء، وتناول العشاء التـي تحضره زوجتـه كل أمسية، وتدريب فريق الشباب، وإجـراء بعض التصليحات في المنـزل ـ ما زالت تهيمن على الثقافة بقوة، مثلها مثل صورة الأم ربة المنزل، حتى وإن زادت صعوبـة محاكاتها باطـراد. وفي نظر الكثيرين اليوم، يعد العجز عن إعالة الأسـرة مصدرا للإحبـاط وحتى للخزي والعار؛ وليس من الضـروري أن يكون المرء مـن دعاة الحتميـة الاقتصادية كي يؤمن بأن ارتفاع معـدلات البطالة وتدني الأجور يسهمـان في عـدم تحمـل الأب لمسؤولياتـه و انخفاض معدلات الزواج بـين الرجال الأمريكيين الأفارقة.

فيما يتعلق بالعاملين، وبالعاملات أيضا، تغيرت شروط الاستخدام. وبغض النظر أكان الأب مهنياً مرتفع الأجر أم مجرد عامل عادي على خط التجميع، فهو يقضي مدة أطـول في الوظيفة مقارنة بحاله في الماضي. مثل هذه الوظائف التي تتزايد متطلباتها فيمـا يتعلق بالـدوام متزامنة مع توقع ـ وفي كثير من الحالات، حاجة ـ أن يكون الآباء أكثر مشاركة في حياة أبنائهم مقارنة بمشاركة آبائهم في حياتهم.

لكـن إذا كانت الفجوة بين مفهوم الأبوة/ الأمومة كما أفكر فيه والواقع الحياتي ليسـت فريدة، فإن ذلك لا يلغي شعوري بأنني لا أعطي عائلتي دوما كل ما أستطيع. في عيـد الآبـاء الماضي، دعيـت للتحدث أمـام أعضـاء كنيسة سـالم المعمدانية في منطقـة ساوث سايـد في شيكاغو. لم يكـن أمامي نص مكتوب، لكـن الموضوع كان: «كيـف تصبح رجلا ناضجا تمام النضج؟» قلـت: «إن الوقت قد حان للرجال عموما والسود على وجه الخصوص للتخلي عن أعذارهم التبريرية للابتعاد عن عائلاتهم. وذكـرت الرجال الحاضريـن أن الأبوة تعني أكثر من مجـرد رعاية الأطفال؛ وحتى

أولئـك الذين لا يغيبون عـن بيوتهم جسدياً كثيراً ما يغيبون عنها عاطفيا ووجدانيا؛ ولأن العديـد منـا لم يكن لديه آباء في المنزل، علينـا مضاعفة جهودنا لكسر الحلقة المفرغـة؛ وإذا أردنا أن ننقل الآمال والطموحات الكبـيرة لأطفالنا، علينا أن نمتلك أولاً مثل هذه الآمال والطموحات».

حـين أفكر بما قلت حينئـذ، أسأل نفسي أحيانـاً هل أطبق بالأفعال مـا أدعو إليه بالأقـوال؟. فعلـى الرغـم من كل شـيء، وخلافا للعديـد من الرجـال الذين تحدثت أمامهـم ذلك اليوم، لست مضطـرا للعمل في وظيفة إضافيـة أو ليلية لإعالة أسرتي. فقد كان بمقدوري العثور على وظيفة تسمح لي بالبقاء في المنزل كل ليلة أو العثور على عمل بأجر أعلى، تبرر فيه ساعات الدوام الطويلة بعض المكاسب لأسرتي ـ كأن تقلص ميشيل ساعات عملها مثلاً، أو ندخر مزيدا من المال للبنتين.

بدلاً من ذلك، اخترت حياة مهنية تتسم بسخف برنامجها وساعات دوامها، حياة تتطلـب مني الغياب عن ميشيل والبنتين مدة طويلة، وهذا يعرض ميشيل لجميع أنواع الإجهـاد والضغوط. قـد أقول لنفسي إننـي بالمعنى الأوسع أعمـل بالسياسة من أجل ماليا وساشا، وأن العمل الذي أقوم به سوف يجعل العالم مكاناً أفضل لهما. لكن مثل هـذه العقلنة تبدو واهيـة ومغالية في التجريد إلى حد مؤلم حـين تفوتني المشاركة مع البنتـين في مأدبـة الغداء التي تقيمها المدرسة بسبب التصويـت في المجلس، أو أتصل بميشيل لإبلاغها بتمديد الجلسة وضرورة تأجيل العطلة التي قررنا قضاءها معا. وفي الحقيقـة، لم يفلح النجاح الذي حققته في السياسـة في تخفيف حدة الشعور بالذنب؛ ومثلما قالت ميشيل ذات مرة، في شبه مداعبة، إن رؤية صورتي في الجريدة أمر مثير أول مرة، لكنها تصبح نوعاً من الإحراج بمرور الزمن.

وهكـذا، بذلـت قصارى جهدي للرد علـى الاتهام الذي يهيمن علـى تفكيري ـ أنا شخصـ أناني، وهـدفي الوحيد هو تدعيـم وتضخيم شعوري الأنوي وملـء الفراغ في ذاتـي. فحين أكون في المدينة، أحـاول تناول العشاء في المنـزل، وسماع حكايات ماليا وساشـا عما جرى خلال اليوم، وقراءة القصص لهمـا، ووضعهما في السرير. أحاول عـدم الارتبـاط بمواعيد أيام الأحـد، وأستغلهـا في عطلة الصيف لآخـذ البنتين إلى

حديقة الحيوانات أو المسبح؛ أما في الشتاء فنزور المتحف أو حوض الأسماك. وأعنف البنتين برقة ولطف حين تسيئان التصرف، وأحاول تقليص ما تأخذانه من التلفزيون وما تأكلانه من الطعام غير الصحي. أتلقى التشجيع على ذلك كله من ميشيل، مع شعوري في بعض الأحيان أنني انتهكت مجالها الحيوي ــ وأنني بغيابي المستمر ربما عززت بعض الحقوق في التدخل في العالم الذي شيدته.

وفيما يتعلق بالبنتين، يبدو أنهما في وضع مزدهر وسعيد على الرغم من غيابي المتواصل. وتلك شهادة دامغة على مهارات الأمومة التي تتمتع بها ميشيل؛ فهي على ما يبدو تمتلك لمسة سحرية حين يتصل الأمر بماليا وساشا، قدرة على رسم الحدود دون شدة أو تصلب. وهي تعمل على ضمان عدم تعديل أسلوب حياة البنتين كثيراً نتيجة انتخابي إلى مجلس الشيوخ، مع أن التغيير الذي أصاب أطفال الطبقة الوسطى في أمريكا هذه الأيام يماثل ما أصاب الآباء على ما يبدو. لقد ولت تلك الأيام التي كان فيها الأبوان يرسلان طفلهما ليلعب خارج المنزل أو في الحديقة على أن يعود قبل العشاء. فمع أخبار عمليات الاختطاف وشك الآباء بكل ما هو تلقائي وعفوي، أو حتى نتيجة شيء من الكسل، فإن برامج ومواعيد الأطفال تنافس برامج ومواعيد الآباء. هنالك الاجتماعات التي يعقدها الآباء والأمهات ليتيحوا لأطفالهم اللعب معا، ودروس الباليه واللياقة البدنية والتنس والبيانو، والمباريات الرياضية، وحفلات أعياد الميلاد التي يبدو أنها تقام أسبوعياً. قلت لماليا ذات مرة إنني لم أحضر طوال مرحلة الطفولة أكثر من حفلتي عيد ميلاد، ولم يزد عدد الحاضرين في كل منهما عن خمسة أو ستة أطفال. فنظرت إلي كما كنت أنظر إلى جدي حين كان يروي لي قصص حقبة الكساد الكبير، بمزيج من الانسحار وعدم التصديق.

مهمة تنسيق نشاطات البنتين متروكة في عهدة ميشيل، التي تؤديها بنجاعة وكفاءة. وأتطوع أنا، عندما أستطيع، للمساعدة، وهو أمر تقدره ميشيل، مع أنها حريصة على تقليل حجم مسؤولياتي. ففي اليوم السابق على حفلة عيد ميلاد ساشا في يونيو الماضي، طُلب مني شراء عشرين بالونا، وما يكفي من البيتزا لإطعام عشرين طفلاً، إضافة إلى المثلجات. بدا ذلك أمراً أستطيع تدبره، وعندما قالت ميشيل إنها

ذاهبة لتحضر بعض الأكياس لتضع فيها الهدايا والأطعمة ونوزعها عند انتهاء الحفلة، اقترحت أن أقوم أنا بالمهمة، فردت ضاحكة:

«لا يمكنـك ذلك. دعنـي أشرح لك. عليك أن تذهب إلى المتجـر وتختار الأكياس، ثـم تختار مـا ستضعه فيها، ومحتوى أكياس البنات يجب أن يكون مختلفا عن محتوى أكياس الصبيان. عليك أن تتجول في المتجر مدة ساعة، فتشعر أن رأسك سينفجر»

تراجعـت ثقتي بنفسي. لكنني عثرت عبر الإنترنت على متجر يبيع البالونات قرب المـكان الـذي ستقام فيه الحفلـة، ومطعم للبيتزا وعـد بإرسال ما طلبـت في الساعة 3:45. بحلـول الوقت الـذي بدأ فيه المدعـون يأتون في اليوم التـالي، كانت البالونات معلقة في مكانها وعلب العصير جاهزة وباردة. جلست مع الآباء الآخرين أراقب زهاء عشرين طفلا وطفلة في نحو الخامسة من العمر يقفزون ويلعبون كجماعة من الأقزام المسحوريـن المبتهجين. أحسست بشـيء من القلق حين لم تحضـر البيتزا في الساعة 3:50، لكنهـا وصلت قبل عشر دقائق من موعد الطعام. كريغ، شقيق ميشيل، هنأني، وميشيل ابتسمت مشجعة وهي تضع قطع البيتزا على الأطباق الكرتونية.

كان الختـام مسكا، فبعد أن التهم الأطفـال البيتزا وشربوا العصير، وأنشدنا معا «سنة حلوة»، وتناولنا بعض قطع الكاتو، جمع مدرب التمارين الرياضية الأطفال كلهم حـول مظلة قديمة متعددة الألـوان وطلب من ساشا الجلوس في المركز. وعند العدد حتـى ثلاثة، طارت ساشـا في الهواء وعادت مـرة أخرى. تكررت الحركـة البهلوانية ثلاث مرات، وفي كل مرة ارتفعت فيها ضحكت وضحكت من أعماق قلبها.

أتساءل هل ستتذكر ساشا تلك اللحظة حين تكبر. لربما لن تذكر؛ إذ يبدو أنني لا أستطيع استعادة سوى نتف من الذكريات من عمر الخامسة. لكني أحسب أن السعادة التـي شعـرت بها سوف تعلـق إلى الأبد في نفسها؛ هذه اللحظـات تتراكم وتنغرس في شخصية الطفل، وتصبح جزءا من ذاته. في بعض الأحيان، حين أسمع ميشيل تتحدث عـن والدها، أسمع صدى مثل هـذه البهجة في داخلها: الحب والاحترام اللذين حظي بهمـا فرازيـر روبنسون لا عبر الشهـرة أو الأعمال المشهودة، بـل التصرفات العادية

اليومية ـ حب اكتسبه لأنه موجود هناك على رأس عائلته. وأسأل نفسي هل ستذكرني البنتان بالطريقة ذاتها.

سرعـان ما تغلـق نافذة هذه الذكريات. يبدو أن ماليا منـذ الآن تنتقل إلى مرحلة جديدة؛ فهـي أكثر اهتماما بالفتيان والعلاقات، وبملابسهـا. كانت على الدوام تبدو أكبر من عمرها، وتتمتع بحكمة استثنائية. في إحدى المرات، حين كانت في السادسة، كنـا نتحدث ونحـن نسير على شاطئ البحيرة، فسألتنـي دون مقدمات هل نعد عائلة ثريـة. قلت إننا لسنا أثرياء فعـلا، لكننا نملك مالا أكثر من معظم الناس. ثم سألتها لماذا تريد أن تعرف.

«كنت أفكر.. وقررت أنني لا أريد أن أكون غنية. أريد أن أعيش حياة بسيطة»

كانـت كلماتهـا مفاجئة إلى حد أنني ضحكت فنظـرت إلي وابتسمت، لكن عيناها أكدت أنها تعني ما قالته.

كثـيرا مـا أفكر بذلك الحديث بيننـا. وأسأل نفسي ما هـو رأي ماليا بحياتي التي ليست بسيطة كثيرا. من المؤكد أنها لاحظت أن آباء أفراد فريقها يحضرون المباريات أكـثر منـي، ولو أزعجهـا ذلك لما بـان عليها، لأنها تميـل إلى المحافظـة على مشاعر الآخريـن، وتحـاول رؤية أفضل ما في كل حالة. ومع ذلـك، يريحني قليلا التفكير بأن ابنتي التي بلغت الثامنة تحبني إلى حد تتغاضى فيه عن نواقصي وعيوبي.

تمكنـت من حضور إحدى مباريات ماليا منذ مدة، حـين انتهى الفصل التشريعي قبل أسبوع من الوقت المحدد. كان أصيل يوم صيفي جميل، والعائلات منتشرة في كل مكان حـين وصلت، من السود والبيض واللاتين والآسيويـين من جميع أنحاء المدينة، نسـاء يجلسن علـى الكراسي، ورجال يلعبـون الكرة مع أطفالهـم، وأجداد يساعدون الأطفـال الصغـار على الوقوف. وجـدت ميشيل وجلست على العشـب بجانبها، وأتت ساشـا وجلسـت في حضني. كانت ماليا في الملعب، ضمـن جماعة من اللاعبين الذين يحيطون بالكرة. ومع أن كرة القدم (الأمريكية) ليست رياضتها المفضلة ـ فهي أطول قامـة من أصدقائها، لكن قدميها الصغيرتين لا تناسبان طول جسمها ـ إلا أنها تلعب

بطريقة متحمسة وتنافسية جعلتنا نهتف لها ونشجعها. في استراحة ما بين الشوطين، أتت إلى حيث كنا نجلس.

سألتها: «كيف حالك يا صديقة؟»

قالت وهي ترشف الماء: «على أحسن ما يرام! أبي، لدي سؤال»

«هيا»

«هل نستطيع شراء كلب؟»

«ما رأي أمك؟»

«طلبت مني أن أسألك. أعتقد أنني أقنعتها»

نظرت إلى ميشيل، فابتسمت وهزت كتفيها.

قلت: «لماذا لا نؤجل الحديث إلى ما بعد المباراة»

«حسنا»، ثم قبلتني وهي تشرب جرعة أخرى من الماء وقالت «أنا سعيدة بوجودك»

قبل أن أجيب كانت في الملعب. لوهلة، وفي وهج شمس الأصيل، شعرت وكأنني رأيت المرأة التي ستكونها ابنتي الكبرى، كأنما في كل خطوة تزداد طولا، ورشاقة، وكأن ساقيها الطويلتين تأخذانها إلى حياة خاصة بها.

ضممت ساشا إلى صدري بقوة. ميشيل أمسكت يدي، كأنها تستشعر ما أحس به. تذكرت شاهدا قالته ميشيل أمام أحد الصحفيين خلال حملتي الانتخابية، حين سألها ماذا يعني لها أن تكون زوجة سياسي.

قالت: «إنه وضع صعب»، ثم أضافت حسب ما قال الصحفي وعلى محياها ابتسامة ماكرة: «ولهذا السبب أراه حامدا شكورا»

كانت زوجتي على حق، كعادتها دائما وأبدا.

obeikandi.com

خاتمة

مراسم أدائي القسم عضوا في مجلس شيوخ الولايات المتحدة (كانون الثاني/ يناير 2005) استكملت عملية بدأت في اليوم الذي أعلنت فيه ترشيحي قبل سنتين ـ واستبدال حياة مغمورة نسبيا بأخرى عامة وشهيرة.

من المؤكد أن العديد من الأمور بقيت على حالها. فأسرتنا ما زالت تقيم في شيكاغو. وما زلت أذهب إلى الحلاق ذاته، ولم نغير أصدقاءنا، أنا وميشيل، الذين يأتون لزيارتنا في البيت، وما زالت البنتان تلعبان في الملاعب نفسها.

ومع ذلك، ليس ثمة شك في أن العالم قد تغير تغيرا عميقا بالنسبة لي، بطرائق لا أعترف بها دائما. كلماتي، وأفعالي، وخطط رحلاتي، وضرائبي، أصبحت تنشر في الصحف الصباحية أو تبث في نشرات الأخبار المسائية. ووجب على ابنتي تحمل أن يقاطع نزهتنا في حديقة الحيوانات غرباء يظهرون الود ويتحدثون معي. حتى خارج شيكاغو، غدا من الصعب السير في المطارات، مثلا، دون أن أثير انتباه الناس.

على وجه العموم، أجد من الصعب التعامل مع هذا الاهتمام كله بجدية كبيرة. فعلى الرغم من كل شيء، ما زلت في بعض الأيام أخرج من البيت وأنا أرتدي سترة لا تناسب البنطال. وأفكاري تفتقر إلى الترتيب، وأيامي تفتقد التنظيم، وصورتي الحقيقية لا تتطابق كثيرا مع تلك التي تبرزها الآن وسائل الإعلام أمام العالم، وتفسر أحيانا بعض اللحظات الهزلية. أتذكر اليوم السابق على أداء القسم، حين قررت أنا والموظفون المساعدون عقد مؤتمر صحفي في مكتبي. في ذلك الوقت، كان ترتيبي التاسع والتسعين في السن، واحتشد جميع المراسلين في مكتب مؤقت صغير في قبو مبنى ديركسن، قرب مستودعات التموين التابعة للمجلس. كان ذلك يومي الأول في المبنى؛ لم أشارك في أي عملية تصويت، ولم أقدم أي مشروع قانون ـ في الحقيقة، لم أجلس بعد في مقعدي حين رفع مراسل جدي الملامح يده وسأل: «سيناتور أوباما، أين هو مكانك في التاريخ؟».

حتى بعض المراسلين الآخرين غلبهم الضحك.

يمكن اقتفاء أثر المبالغة والغلو في الخطبة التي ألقيتها أمام المؤتمر الديمقراطي في بوسطن عام 2004، حين أثرت أول مرة الاهتمام على المستوى الوطني. في الحقيقة، بقيت العملية التي تم عبرها اختياري المتحدث الرئيس سرا غامضا بالنسبة لي. كنت قد التقيت جون كيري أول مرة بعد الانتخابات التمهيدية في الينوي، حين تحدثت في حملته لجمع التبرعات، ورافقته في مهمة استهدفت تسليط الضوء على أهمية برامج التدريب الوظيفية. بعد بضعة أسابيع، علمنا أن مساعدي كيري يريدون مني التحدث أمام المؤتمر، مع أنه لم تتضح بعد الصفة التي أمثلها. بعد الظهر، ركبت السيارة عائدا من سبرينغفيلد إلى شيكاغو للمشاركة في الحملة، واتصلت بي مديرة حملة كيري الانتخابية لتبلغني النبأ. بعد انتهاء المكالمة قلت لسائقي مايك سيغناتور:

«أعتقد أن الأمر مهم جدا»

أومأ مايك وقال: «يمكنك أن تقول ذلك»

لم أحضر مؤتمرات الحزب الديمقراطي من قبل سوى مرة واحدة، مؤتمر عام 2000 في لوس أنجلوس. لم أخطط لحضور ذلك المؤتمر؛ كنت خارجا للتو من الهزيمة التي منيت بها في الانتخابات التمهيدية للحصول على مقعد المنطقة التشريعية الأولى في ولاية الينوي ومصمما على قضاء معظم عطلة الصيف في استكمال الواجبات والقضايا القانونية التي تركتها خلال الحملة (وهذا إهمال تركني مفلسا تقريبا)، إضافة إلى تعويض الوقت الذي خسرته مع زوجة وابنة غبت عنهما كثيرا خلال الشهور الستة الماضية.

لكن في اللحظة الأخيرة، أصر عدد من الأصدقاء والأنصار من المخططين على الانضمام إليهم. قالوا إن عليك توطيد اتصالات على المستوى الوطني، تفيدك عندما تترشح مرة أخرى ـ وعلى أي حال ستكون المناسبة ممتعة. ومع أنهم لم يلمحوا إلى أمر آخر آنذاك، إلا أنني أظن أنهم عدوا الرحلة إلى المؤتمر نوعا من العلاج المفيد لي، على أساس أن أفضل شيء أفعله بعد أن سقطت عن الحصان هو العودة إلى السبيل الصحيح.

في نهاية المطاف أذعنت وحجزت تذكرة إلى لوس أنجلوس. وحين حطت الطائرة، ذهبت إلى مكتب هيرتز لتأجير السيارات وناولت الموظفة بطاقتي الائتمانية، وبدأت أبحث في الخريطة عن الاتجاهات المؤدية إلى فندق رخيص السعر، فوجدت واحدا قرب فينيس بيتش. بعد بضع دقائق عادت الموظفة وعلى وجهها أمارات الإحراج

«عفوا يا سيد أوباما، رفضت بطاقتك».

«هذا مستحيل، هل يمكنك المحاولة مرة أخرى؟».

«حاولت مرتين يا سيدي. ربما عليك الاتصال بأمريكان اكسبريس».

بعد مكالمة دامت نصف ساعة على الهاتف، أجاز المشرف الطيب استخدام بطاقتي لاستئجار سيارة. لكن الحادثة كانت نذير شؤم. ونظرا لأنني لست مندوبا، لم أتمكن من ضمان الحصول على إذن بدخول قاعة المندوبين؛ ووفقا لرئيس الحزب في الينوي، فقد تلقى سيلا دافقا من الطلبات، وأفضل ما يمكن أن يفعله هو منحي الإذن بدخول مكان الاجتماع. ولذلك، انتهى بي المطاف أشاهد وأستمع إلى معظم الخطب عبر شاشات التلفزيون المبعثرة في مختلف أرجاء مركز ستيبلز، وأتبع الأصدقاء أو المعارف إلى المقصورات حيث اتضح أنني غريب عن المكان. بحلول مساء الثلاثاء، أدركت أن حضوري لا يفيدني ولا يخدم أي هدف بيّن للحزب الديمقراطي، وبحلول الأربعاء كنت على أول رحلة عائدا إلى شيكاغو.

نظرا للفارق الواسع بين دوري السابق كضيف غير مدعو ودوري الجديد كخطيب رئيس، شعرت ببعض القلق من أن ظهوري في بوسطن قد لا يسير على ما يرام. لكن لأنني ربما تعودت بحلول ذلك الوقت الأمور الغريبة التي تحدث في حملتي الانتخابية، لم أحس بأي توتر. بعد بضعة أيام من مكالمة السيدة كاهيل، عدت إلى غرفتي في الفندق في سبرينغفيلد، أدون الملاحظات في مسودة الخطبة في حين أشاهد مباراة في كرة السلة. فكرت بالموضوعات التي تناولتها خلال الحملة ـ استعداد الناس للعمل بجد ودأب إذا منحوا الفرصة، ضرورة قيام الحكومة بتوفير الأرضية المناسبة للفرص، الاعتقاد أن الأمريكيين يشعرون بالتزام متبادل تجاه

بعضهم بعضا. وضعت قائمة بالقضايا التي يمكن أن أتطرق لها ـ الرعاية الصحية، والتعليم، والحرب في العراق.

لكن قبل كل شيء، فكرت بأصوات جميع الناس الذين قابلتهم خلال مسار الحملة. تذكرت تيم ويلر وزوجته في غيلزبرغ، محاولا معرفة الطريقة التي يمكن عبرها لابنهما المراهق إجراء عملية زرع الكبد التي يحتاج إليها. تذكرت شابا في ايست مولين اسمه سيموس اهرن الذي كان في طريقه إلى العراق ـ رغبته في خدمة وطنه، أمارات الفخر والاعتزاز والخوف على وجه والده. تذكرت شابة سوداء قابلتها في ايست سنت لويس، نسيت اسمها، أخبرتني عن مساعيها للانتساب إلى الجامعة رغم عدم وجود أحد في أسرتها تخرج في المدرسة الثانوية.

لم يكن كفاح هؤلاء الرجال والنساء هو الذي أثر في نفسي، بل عزيمتهم، واعتمادهم على الذات، وتفاؤلهم العنيد على الرغم من المشقات. تذكرت جملة استخدمها القس جيرميه رايت، في إحدى مواعظه:

الجرأة على الأمل

فكرت بأنها تجسد أفضل ما في الروح الأمريكية ـ الجرأة على الإيمان بأن في مقدورنا استعادة حس الجماعة إلى أمة مزقتها الصراعات، على الرغم من الأدلة التي تثبت العكس؛ التجرؤ على الاعتقاد أننا نمتلك بعض السيطرة ـ ومن ثم المسؤولية ـ على مصيرنا، على الرغم من النكسات الشخصية، أو فقدان الوظيفة، أو مرض أحد أفراد العائلة، أو الطفولة الممرغة في وحل الفقر.

تلك الجرأة، كما فكرت، هي التي جمعتنا معا كشعب واحد. روح الأمل المنتشرة تلك هي التي ربطت قصة عائلتي مع قصة المجتمع الأمريكي الأوسع، وقصتي الشخصية مع قصص الناخبين الذين أسعى إلى تمثيلهم.

توقفت عن متابعة المباراة، وأغلقت التلفزيون، وبدأت الكتابة.

بعد بضعة أسابيع، وصلت إلى بوسطن، وسرقت ثلاث ساعات نوم، وذهبت من فندقي إلى فليت سنتر من أجل أول ظهور لي في برنامج «قابل الصحافة». وقرب

انتهـاء البرنامـج، وضع تيم روسيرت على الشاشة مقتطفـات من مقابلة أجريتها مع صحيفـة كليفلاند بلين ـ ديلر غابت عن ذاكرتي كليا، حيث سألني المراسل ـ بوصفي دخلـت للتو معترك السياسة كمرشـح لمجلس شيوخ ولاية الينوي ـــ عن رأيي بالمؤتمر الديمقراطي في شيكاغو:

> المؤتمر للبيع.. أنت تحصل على طبق العشاء مقابل 10 آلاف دولار، وبطاقة النادي الذهبية. أعتقد أن الناخب العادي حين يرى ذلك، يشعر بأنه مبعد عن العملية. إذ لا يمكنه حضور حفلة إفطار بقيمة 10 آلاف دولار. ويعرف أن القادرين ستتاح لهم أمور لا يتصورونها حتى في خيالهم.

بعد أن غاب الشاهد المقتبس عن الشاشة، التفت روسيرت إلي وقال: «مئة وخمسون متبرعـا قدموا أربعين مليـون دولار لهذا المؤتمر. الوضع أسـوأ حالا من شيكاغو وفقا لمعايـيرك. هـل تشعر بتعرضـك للإساءة، ومـا الرسالة التي يبعث بهـا ذلك كله إلى الناخب العادي؟».

قلـت مجيبا إن السياسة والمال يمثلان مشكلة للحزبين كليهما، لكن سجل تصويت جـون كيري، وسجلـي أنا، أشارا إلى أننـا صوتنا لمصلحة البلـد. وأن المؤتمر لن يغير ذلـك، مع أنني اقترحت فعلا أنه كلما زاد تشجيع الديمقراطيين للمشاركة من جانب الناس المغيبين عن العملية، زاد إخلاصنا لأصولنا وجذورنا كحزب المواطنين العاديين، وتعاظمت قوتنا كحزب سياسي.

اعتقدت في سري أن الشاهد الأصلي (لعام 1996) كان أفضل وأصدق تعبيراً.

في بعض الأحيـان كانت المؤتمرات السياسية تعبر عن الحالات الطارئة والدرامية للسياسـة ـــ حين كانـت الترشيحـات تقررها قيـادات المؤتمـر وأعـداد الحاضرين والصفقـات الجانبية والضغـوط والتهديدات، حين كانت العواطـف والأهواء أو سوء الحساب تؤدي إلى جولة ثانية أو ثالثة أو رابعة من التصويت. لكن هذا الزمان مضى وانقضـى. فمع ظهـور الانتخابـات التمهيدية الملزمـة، وإنهاء هيمنـة زعماء الحزب والصفقـات الجانبية والمفاوضات السريـة، لم تعد المؤتمرات تخبئ المفاجآت. بل تعد

إعلانـا دعائيـا يستمر أسبوعـا للحزب ومرشحه ــ إضافة إلى كونهـا وسيلة لمكافأة الأنصار المخلصين والمساهمين الرئيسيين في الحزب بأربعة أيام من الطعام والشراب والتسلية وتبادل الحديث عن القضايا التي تهمهم.

قضيـت معظم الأيام الثلاثـة الأولى من المؤتمر أمارس دوري في هذا المهرجان. تحدثـت في قاعـات مليئـة بالمتبرعـين الديمقراطيين الرئيسيـين، وتناولـت الفطور مـع مندوبين مـن الولايات الخمسين. كنـت أجرب إلقاء الخطب أمـام شاشة فيديو، وأؤدي «البروفـات» حول تنفيذها، وأتلقى التعليمات فيما يتعلق بالمكان الذي أقف فيه وإشـارات اليدين وأفضل طريقة لاستخدام الميكروفونـات. وكنت أصعد وأنزل أدراج مبنـى فليت سنتر، برفقة مديـر اتصالاتي، روبرت غيبز، لإجـراء مقابلات، لم يكن يفصل بينها أحيانا سوى دقيقتين، مع محطات إيه بي سي، وإن بي سي، وسي بي إس، وسي إن إن، وفوكس نيوز، وإن بي آر، مؤكدا في كل منها على النقاط التي قدمها فريق كـيري ـ إدواردز، واختبرت كل كلمة منهـا دون شك بواسطة العديد من استطلاعات الرأي والمجموعات التمثيلية.

نظـرا لسرعتي الشديدة في تلك الأيام المحمومة، لم يكن لدي الوقت الكافي لأشعر بالقلق على تأثير خطبي وأحاديثي. ولم أشعر بشيء من التوتر إلا مساء الثلاثاء، بعد أن تجـادل المساعدون مع ميشيـل حول ربطة العنق التي سأرتديها (اتفقنا أخيرا على ربطـة عنق روبرت غيبز)، وبعـد أن ذهبنا إلى فليت سنتر وسمعنا الناس يهتفون لي: «حظـا سعيدا!»، و«اسحقهم يا أوباما»، وبعـد أن زرنا السيدة الكريمة والمسلية تيريزا هاينـز كيري في غرفتها في الفندق، وجلسنا أنا وميشيل نشاهد البث في غرفة خلفية. ذكرت لميشيل أنني أشعر ببعض الألم في معدتي فعانقتني ونظرت في عيني وقالت: «لا تفسد الأمر يا رفيق!».

ضحكنـا معاً. في تلك اللحظة أتى أحد مديـري الإنتاج وقال إن الوقت قد حان لآخذ مكاني خلف المسرح. وقفت وراء الستارة السوداء، واستمعت إلى ديك دروبن يقدمني، فكرت بأمي وأبـي وجدي وشعورهم لو كانوا بين الحضور. فكرت بجدتي في هـاواي، التـي تشاهد المؤتمر على شاشـة التلفزيون لأن حالـة ظهرها المتردية

منعتهـا من السفر. فكـرت بالمتطوعين والأنصار والمؤيديـن في الينوي الذي بذلوا قصارى جهدهم من أجلي.

قلـت لنفسي: يا إلهي ساعدني على رواية قصصهـم بطريقة صحيحة. ثم دخلت إلى المسرح.

سأكـون كاذبـا لو قلـت إن ردة الفعـل الإيجابية على خطبتي في مؤتمـر بوسطن ـ الرسائـل التي تلقيتهـا، والحشود التي تجمعت لاستقبالنا حـين عدنا إلى الينوي ـ لم تكـن مرضية لي شخصيا. فعلى الرغم من كل شيء، دخلت معترك السياسة لأمارس بعضـ التأثيرات في الجدل العام، لأنني اعتقدت أن لدي ما أقوله فيما يتعلق بالوجهة التي يجب أن تسير نحوها البلاد.

ومـع ذلك، عـززت موجة الشهـرة الكاسحة التـي أعقبت الخطبـة إحساسي بأن الشهرة أمر زائل وعابر، ومرتكز على ألف من العوامل المختلفة، منها الحظ والأحداث التي اتخذت هذا المسار لا ذاك. أعرف أنني لست أكثر ذكاء من الرجل الذي كنته قبل سـت سنين، حين سقطت في تلك الورطة ـ المؤقتة ـ في لوس أنجلوس. أفكاري المتعلقة بالرعاية الصحية أو التعليم أو السياسة الخارجية لم تشهد إضافات محسنة صقلتها وشذبتهـا وجعلتهـا أفضل مما كانت عليه حين كنت مغمـورا أجاهد وأكافح في ميدان التنظيـم الاجتماعي. فـإذا أصبحت أكثر حكمة، فلأنني تقدمـت خطوة على السبيل الذي اخترتـه لنفسي، سبيل السياسة، وعرفت لمحة عن الوجهة التي يؤدي إليها، إلى النفع أو إلى الضر.

أتذكـر حديثـا لي مع صديق قبـل عشرين سنة، رجل أكبر منـي عمرا كان ناشطا في مجـال حقوق الإنسان في شيكاغو في الستينيـات، وأستاذا للدراسات الحضرية في جامعـة نورث ويسترن. كنت قد قررت لتـوي، بعد ثلاث سنوات من العمل في التنظيم الاجتماعـي، الانتسـاب إلى كلية الحقوق؛ ولأنه واحد مـن الأكاديميين القلائل الذين عرفتهم، طلبت منه توصية.

قـال إنه يسعـده أن يكتب التوصية، لكن يريد أن يعرف أولا مـا أنوي فعله بشهادة الحقـوق. ذكرت له اهتمامـي بالحقوق المدنية، وأنني سأحـاول في مرحلة ما الترشح

لأحد المناصب العامة. أومأ رأسه وسألني هل فكرت بما يعنيه اتخاذ هذا السبيل، وما هي الأشياء التي سأكون مستعدا لفعلها لإجراء مراجعة على القانون، أو اتخاذ شريك، أو الارتقاء في ذلك المنصب الذي سأنتخب له. كقاعدة عامة،يتطلب القانون والسياسة كلاهما تنازلات وتسويات، كما قال؛ لا فيما يتعلق بالقضايا وحسب، بل بالأمور الجوهرية ـ القيم والمثل. لم يكن يقول ذلك ليثنيني عن هدفي، كما أكد. بل هي الحقيقة. فبسبب عدم رغبته في تقديم التنازلات، رفض دوما دخول معترك السياسة على الرغم من الطلبات الكثيرة التي دعته إلى دخولها في شبابه.

قال لي: «لا يعني ذلك أن الخطأ متأصل في التسوية، بل لأنني لم أجدها مرضية ولا مقنعة. والشيء الذي اكتشفته مع تقدمي في العمر أن عليك أن تفعل ما يرضيك ويقنعك. وفي الحقيقة، فإن هذه إحدى مزايا الشيخوخة، كما أفترض، حيث تعرف أخيرا ما يهمك. يصعب أن تعرف ذلك في السادسة والعشرين. والمشكلة أنه لا يوجد من يجيب عن هذا السؤال من أجلك. عليك أن تفكر به وحدك».

بعد عشرين سنة، فكرت بذلك الحديث وقدرت أهمية كلمات صديقي أكثر مما فعلت آنئذ. فقد بلغت عمرا يجعلني أعرف ما يرضي نفسي، ومع أنني أكثر تسامحا مع التسويات مقارنة بصديقي، إلا أنني أعرف أن رضى النفس لن أجده في وهج كاميرات التلفزيون أو تصفيق الجمهور. بل يبدو أنه يأتي غالبا الآن من معرفة أنني استطعت بطريقة يمكن إثباتها مساعدة الناس على العيش بشيء من الكرامة. أفكر بما كتبه بينجامين فرانكلين إلى أمه، ليشرح لها لماذا كرس هذا القدر من وقته للخدمة العامة: «أفضل أن يقال: استفاد الناس من حياته، بدلا من مات ثريا».

هذا ما يرضي نفسي الآن كما أحسب ــ أن أكون مفيدا لأسرتي والناس الذين انتخبوني، وأخلف ورائي ميراثا يجعل حياة أطفالنا مترعة بأمل أكبر من حياتنا. في بعض الأحيان، حين أعمل في واشنطن، أشعر أنني أحقق ذلك الهدف. في أحيان أخرى، يبدو أن الهدف يبتعد عني، وكل النشاط الذي أمارسه ــ جلسات الاستماع والخطب والمؤتمرات الصحفية والبيانات التي أعلن فيها وجهة نظري ـ نشاط عبثي لا طائل فيه ولا يفيد أحدا.

حين أجد نفسي في هذه الحالة الذهنية، أحب ممارسة رياضة الجري. في العادة، أبدأ عند المغرب، خصوصا في الصيف والخريف، حين يكون الهواء في واشنطن دافئا وهادئا ولا تكاد الريح تهز أوراق الشجر. وبعد هبوط الليل، لا أجد كثيرا من الناس في الطريق ـ اللهم سوى بعض الأزواج والزوجات الذين يسيرون هنا وهناك، وبعض المشردين على المقاعد يرتبون حاجياتهم. في معظم الأحيان أتوقف عند نصب واشنطن التذكاري، لكنني أحيانا أصل إلى النصب التذكاري لأبطال الحرب العالمية الثانية، ثم إلى النصب التذكاري لقدامى المحاربين في فيتنام، وبعدئذ أصعد درج نصب لينكولن.

في الليل، يكون الضريح العظيم مضاء لكن خاليا. أقف هناك بين الأعمدة الرخامية، وأقرأ خطبة غيتسبرغ وخطاب القسم للولاية الثانية. ثم أنظر إلى ريفلكتينغ بول، وأتخيل الحشد المسحور بإيقاع صوت مارتن لوثر كينغ، ثم إلى ما وراءها حيث المسلة المضاءة وقبة الكابيتول البراقة.

وفي ذلك المكان، أفكر بأمريكا وبُناتها، الآباء المؤسسين لهذه الأمة الذين ارتقوا فوق مطامحهم الصغيرة وسموا فوق حساباتهم الضيقة وتخيلوا أمة تمتد دولتها عبر قارة. وأولئك الذين نذروا حياتهم، مثل لينكولن وكينغ، لجعل اتحاد يفتقد الكمال كاملا. وجميع أولئك الرجال والنساء، الذين لا وجوه لهم ولا أسماء، والعبيد، والجنود، والخياطين، واللحامين، الذين بنوا حياة لهم ولأطفالهم وأحفادهم، لبنة لبنة، ومدوا السكك الحديدية وشيدوا الطرقات وجاهدوا وكافحوا بأيديهم الصلبة وأذرعهم القوية لتحقيق أحلامنا الجمعية.

هذه العملية هي التي أريد أن أشارك فيها.

فقلبي مترع بالحب لهذا البلد.

كلمة شكر

ما كان لهذا الكتاب أن يرى النور لولا الدعم الاستثنائي الذي قدمه عدد من الأشخاص.

علي أن أبدأ بزوجتي ميشيل. فالزواج من سناتور أمر يصعب تحمله، لكن الزواج من سيناتور يؤلف كتابا يحتاج إلى صبر أيوب. إذ لم تكتف بتوفير الدعم المعنوي والعاطفي طيلة مدة الكتابة، بل ساعدتني على التوصل إلى العديد من الأفكار التي عبر عنها الكتاب. مع كل يوم يمر، أعرف كم أنا محظوظ بوجودها في حياتي، ولا يمكنني سوى الأمل بأن يقدم حبي اللامحدود لها بعض المواساة والتعويض عن انشغالي المستمر عنها.

أريد أن أعبر أيضا عن الشكر لمحررة الكتاب، ريتشيل كليمان. فحتى قبل أن أفوز بانتخابات المجلس التمهيدية، كانت ريتشيل هي التي نبهت دار النشر، كراون، إلى أهمية كتابي الأول «أحلام من أبي» بعد أن نفدت نسخه. وهي التي أيدت اقتراحي بتأليف هذا الكتاب. وهي التي ظلت شريكتي الدائمة في الجهد الصعب لكن المتواصل والمتسارع لاستكمال إنجازه. في كل مرحلة من عملية التحرير، تميزت بالرؤى الثاقبة، والدقة الشديدة، والحماسة التي لا تهدأ. وكثيرا ما فهمت ما كنت أحاول تحقيقه من الكتاب حتى قبل أن أبدا، وأعادتني بلطف ورقة لكن بصرامة لا تلين إلى المسار الصحيح كلما ضللت السبيل وانزلقت إلى مستوى الرطانة، أو اللغة الطنانة، أو العاطفة المفرطة المغالية. فضلا عن ذلك، اتسمت بصبر لا ينفد تجاه انشغالي الدائم وبرنامج مواعيدي المتخم في المجلس، والنوبات الدورية من فتور الحماس وانقطاع الإلهام؛ وكثيرا ما كان عليها التضحية بنومها الهانئ، أو عطلها الأسبوعية، أو إجازاتها مع أسرتها لكي تدفع المشروع قدما إلى الأمام.

باختصار، كان محررة مثالية ـ وغدت صديقة لا تقدر بثمن.

obeikandl.com

وبالطبع، ما كانت ريتشيل لتستطيع إنجاز ما أنجزته لولا الدعم الكامل من الناشرين في مجموعة كراون، جيني فروست وستيف روس. فإذا شملت صناعة النشر تشابك الفن والتجارة، فقد انحاز الاثنان باستمرار إلى جانب جعل الكتاب على أفضل صورة ممكنة. وإيمان كل منهما به دفعه إلى بذل جهد دؤوب إضافي ـ مرارا وتكرارا ـ في سبيل نشره، ولذلك أدين لهما بالشكر الجزيل.

الروح ذاتها ميزت جميع العاملين في دار كراون للنشر الذين بذلوا جهدا مضنيا في سبيل الكتاب. آميبورستاين، التي لم تتعب من إدارة عملية الإنتاج المرهقة على الرغم من ضيق الوقت. في حين دافعت تينا كونستابل وكريستين ارونسون دفاعا مستميتا عن الكتاب واستطاعتا بكل مهارة وحذق جدولة (وإعادة جدولة) اللقاءات معي وفقا لمواعيد عملي في المجلس. وبذلت جيل فلاكسمان جهدا دؤوبا مع قسم المبيعات في راندوم هاوس والمكتبات لتساعد في سرعة وصول الكتاب إلى أيدي القراء. وأنتج جاكوب برونستاين ـ للمرة الثانية ـ نسخة صوتية متميزة للكتاب في ظروف لا يمكن وصفها بالمثالية. إلى هؤلاء جميعا أقدم شكري وتحياتي القلبية، ولن أنسى الأعضاء الآخرين في فريق دار كراون: لوسيندا بارتلي، ويتني كوكمان، لورين دونغ، لورا دوفي، سكيب داي، ليتا ايفانثيز، كريستين كايسر، دونا باسانانت، فيليب باتريك، ستان ريدفيرن، باربرا ستورمان، دون فايسبيرغ، والعديد غيرهم.

هنالك عدد من الأصدقاء، منهم ديفيد اكسلرود، كاساندرا بوتس، فوريست كلايبول، جوليوس جيناتشوفسكي، سكوت غريشن، روبرت فيشر، مايكل فرومان، دونالد غيبس، جون كوبر، انتوني ليك، سوزان رايس، جين سبيرلينغ، كاس سونستاين، جيم واليس، الذين قرؤوا المخطوط وقدموا اقتراحات ثمينة ومفيدة. سامانثا باور تستحق شكرا خاصا على كرمها الاستثنائي؛ فعلى الرغم من أنها تؤلف كتابا خاصا بها، عملت على مراجعة كل فصل كأنه من فصول كتابها، وقدمت سيلا دافقا مستمرا من الملاحظات المفيدة، وشجعتني على المتابعة كلما استشعرت فتورا في طاقتي وتراخيا في همتي.

وهنالـك عدد من الموظفين المساعدين في المجلس، منهم بيت روز، كارن كورنبلوه، مايك ستروتمانيز، جون فافرو، مارك ليبيرت، جوشوا دوبوا، وخصوصا روبرت غيبس وكريـس لو، قرؤوا المخطوط خلال وقت الفراغ وقدموا لي اقتراحات تتعلق بالتحرير، وتوصيات تتصل بالسياسة، ومذكرات، وتصويبات. الشكر كل الشكر لهم جميعا على القيام بأكثر مما تطلبته واجباتهم.

الموظفـة التي عملت معـي سابقا، مادوري كوماريدي، كرسـت فصل الصيف قبل التحاقهـا بكلية الحقوق بجامعة ييل من أجـل التحقق من دقة المعلومات في المخطوط برمتـه. أذهلتنـي موهبتهـا وأدهشتنـي طاقتهـا. أتوجـه بالشكر أيضـا إلى هيلاري شرينيـل، التي تطوعت لمساعدة مادوري في التحقق من عدد من المعلومات الواردة في فصل السياسة (الخارجية).

أخيرا، أود أن أشكر وكيلي، بوب بارنيت (من شركة وليامز كونولي)، على صداقته، ومهارته، ودعمه. فالتأثير الإيجابي الذي مارسه كان هائلا.

obeikandl.com